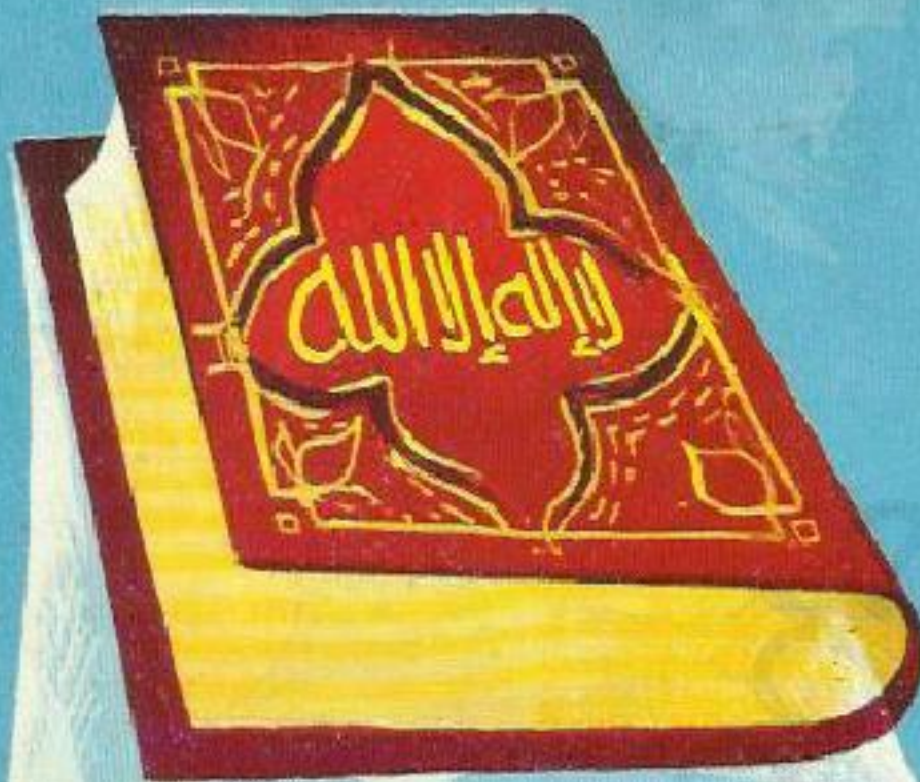


مُحَمَّدُ سُرُورُ بْنُ نَافِثٍ زَيْنُ الْعَابِدِينَ



مَنْ مَنِجَ الْأَنْبِيَاءُ

فِي

الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ

شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ

دارُ الرَّسَدِ

لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ
بِرَمْنِجْهَامِ . بَرِيطَانِيَا

الْخَزْنَةُ الثَّانِي

مَنْهَجُ الْأَنْبِيَاءِ
فِي
الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ
شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ

مَنْعُ الْإِنْبِيَاءِ

فِي
الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ

الْمُرُورِ فِي

شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

تأليف

محمَّد سرور بن نايف زين العابدين

دار الهدى

للتسليم والتوزيع

برمنجهام - بريطانيا

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الثانية
١٤٠٩ هـ = ١٩٨٨ م



للنشر والتوزيع

DAR AL- ARQAM

B552, Moseley Road, Balsall Heath,

Birmingham B12 9AD, U.K.

Tel: 021-449 4422

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله
وخليته وأمينه على وحيه ، أرسله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى
الله بإذنه وسراجاً منيراً ، صلى الله عليه وعلى إخوانه أنبياء الله ورسله ومن دعا
بدعوته إلى يوم الدين . أما بعد :

فمن أهم أمراض عصرنا ومشكلاته : الصد عن سبيل الله ، والإفساد في
الأرض ، وبخس الناس حقوقهم ، وتطفيف الكيل والميزان . وبشكل أكثر
وضوحاً وشمولية نستطيع القول : إن من أهم مشكلات عصرنا الظلم على
مختلف أشكاله وصوره سواء كان ظلم الإنسان لربه ، أو ظلمه لنفسه ، أو ظلمه
لمن يقدر على ظلمهم من بني جنسه ، أو حتى ظلمه للحيوانات ... ومن يراقب
الأحداث في مجتمعاتنا يشاهد هذه الظاهرة بشكل جلي واضح : فالقوي يقهر
الضعيف ، والغني يستغل الفقير ، وصاحب العمل يستبعد عماله ويأكل حقوقهم
أو يعطيهم إياها منقوصة غير كاملة بعد أن يجف عرقهم ، والدول الكبرى
تستعمر الشعوب الضعيفة وتستذلها وتنهب خيراتها ، وتحرص على بقائها فقيرة
جاهلة متخلفة .

ولقد تصدى أنبياء الله ورسله عليهم أفضل الصلاة والتسليم عبر مسيرتهم
الكريمة لعلاج هذه الظاهرة ، فبيتوا لأقوامهم حرمة الظلم وأنه من أكبر الكبائر ،
وواجهوا الظالمين رغم كل ماكانوا عليه من جيروت وغرور وطفغان قدعوهم
إلى العدل والمساواة والرحمة ... حتى أنني كنت أحس وأنا أعد هذا الجزء
[أي الجزء الثاني من منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله] أن شعيباً عليه السلام

وكانه يخاطب الظالمين في عصرنا ، يرشدهم إلى الطريق الصحيح ، ويحذرهم من البخس والفساد والتطفيف ، ومن الصد عن سبيل الله .

دعا شعيب عليه السلام قومه إلى وحدانية الله تعالى ، وإلى وجوب الإذعان التام ، والإلتقياد المطلق لكل ما يأمر به ، وهذا يعني أنه عليه السلام بدأ دعوته بتربية رجال يصدق فيهم قوله تعالى :

﴿ رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا تَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ
وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يُخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾
[النور : ٣٧] .

ثم ربط مشكلات عصره بهذه الوجدانية ، وكان قدوة حسنة لقومه في كل ما يأمر به ويدعو إليه ... وهذا سر النجاح في دعوة شعيب عليه السلام ، فهو لم يتحدث عن التأميم والإصلاح الزراعي ، ولم يقدم لهم قوانين جافة لأحياة ولا روح فيها لأن الذين لا يخشون الله ، فهم من باب أولى لا يخشون هذه القوانين ولا يقيمون لها وزناً لاسيما إذا كانوا هم الذين وضعوها .. لقد كانت تربية شعيب عليه السلام عميقة الجذور ، راسخة البنيان ، لانهزها الرياح ، ولا تقتلعها الأعاصير .

إن التاريخ يشهد والحقائق الدامغة تنطق بأن البشرية ما عرفت العدل والمساواة والرحمة والمواخاة إلا في ظل أنظمة يكون الدين فيها كله لله ، أما الذين ينكرون أو يتجاهلون منهج الله وهديه فما عرفت البشرية في ظل حكمهم إلا الظلم والبغي والفساد والصد عن سبيل الله .

لقد بُلينا في هذا العصر بمن يبكي دموع التماسيح على ما يلقاه العمال والفلاحون من اضطهاد وذل واستعباد ، وينادي بوجوب سحق طبقة الرأسماليين والإقطاعيين .. ونجح هؤلاء أدعياء العدالة والإشراكية — في بعض بلدان العالم الإسلامي — في استقطاب جمهور العمال والفلاحين وتجنيدهم في قواعد أحزابهم العلمانية الجاهلية ، ووعدوهم بجنات تجري من تحتها الأنهار .

وقامت انقلابات عسكرية ثورية في هذه البلدان المنكوبة شعارها الحرية والإشراكية ، وصفق الفقراء للقادة الجدد ، وظنوا أن أيام البؤس والشقاء قد ولت ، وأن المصانع والمزارع ستكون ملكاً لهم .. وبعد بضعة سنين أصبح المواطنون جميعاً فقراء ، غير أنه ظهرت طبقة جديدة من الرأسماليين .. إنها طبقة القادة الجدد ومن يلوذ بكنفهم من الأقرباء والأصدقاء والمتنفذين . في الحزب الحاكم .. وما اكتفى هؤلاء بتجويع العباد وتدمير الاقتصاد ، وإنما حولوا البلد كله إلى سجن ، وأشاعوا الذعر والإرهاب ، وتناسوا بأن الرجال الأحرار يختارون الفقر والجوع على الذل والخنوع .. ولقد تحدثت عن أحوال هؤلاء في الفصل الأول من هذا الكتاب [صور من الظلم في القديم والحديث] . ومن أجل أن لاتخدع شعوبنا مرة أخرى بعملاء الشرق الشيوعي ، أو بعملاء الغرب الرأسمالي العلماني أقدم هذه الدراسة عن نبي الله شعيب عليه السلام الذي أرسله الله جلّ وعلا ليحرر قومه من الكفر والظلم والفسوق والعصيان ، ولهذا فقد كانت دعوته مفيضة نوح في كل طوفان ، ولقد قسمت هذا البحث إلى الفصول التالية :

الفصل الأول : قسمته إلى مبحثين :

- المبحث الأول : عرضت فيه صوراً من الظلم في القديم والحديث .
- والمبحث الثاني : عرضت فيه الأدلة من الكتاب والسنة على تحريم الظلم ، والحاجة إلى ذلك أنه قد يقول قائل : أنت تتحدث عن شعيب عليه السلام ، ونحن لسنا ملزمين إلا بما جاء به نبينا ﷺ ، وشرع من قبلنا ليس شرعاً لنا . ولهذا فقد عرضت آيات من كتاب الله ، وعدداً من الأحاديث الصحيحة تؤكد كلها حرمة الظلم ، وبينت أنواعه ، وما توعد الله به الظالمين يوم الحشر والحساب .. هذا وقد ألزمت نفسي في هذه السلسلة [منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله] أن لا أذكر حكماً شرعياً دعاً إليه نبي من أنبياء الله ثم أربطه بواقع عصرنا إلا وأذكر ما يؤيده من الأحاديث النبوية الصحيحة ، بل وفي كثير من الحالات أذكر أقوال كبار علماء السلف فيه .

الفصل الثاني : قسمته إلى مبحثين :

— المبحث الأول : تحدثت فيه بإيجاز عن سيرة شعيب عليه السلام .

— والمبحث الثاني : يتألف من الفقرات التالية :

أولاً — دعاهم إلى وحدانية الله تعالى .

ثانياً — جاءهم ببينة .

ثالثاً — كان عليه السلام قدوة حسنة .

رابعاً — واجه شعيب قومه بانحرافاتهم .

الفصل الثالث : تحدثت فيه عن صراع شعيب عليه السلام مع الملائكة من

أهل مدين منذ بداية بعثته ، كيف كان يخاطبهم ، وكيف كانوا يردون عليه ..

وكيف تغير أسلوبه وأسلوبهم في المرحلة الأخيرة التي سبقت هلاكهم ..

الفصل الرابع : مصارع الطغاة : تكلمت فيه عن هلاك الكافرين الظالمين

من أهل مدين ، ثم بينت سنة الله الماضية في هلاك الظالمين عندما ما يكفرون

بالله ويعرضون عن منهج أنبيائه ويفسدون في الأرض ، ثم عرضت أمثلة على

ذلك في القديم والحديث ، واخترت نماذج شاهدها وعاصرتها .

والذي دعاني إلى إفراذ هذا الجزء بدعوة شعيب ورسائله أمران :

الأول : تكاد دعوته عليه السلام تكون قاصرة على محاربة الظلم

والظالمين ، وَرَبَطَ هذه المسألة بوحداية الله تعالى .

الثاني : الحاجة الملحة إلى طرق هذا الموضوع ، واقتفاء أثر محمد

وشعيب وغيرهما من أنبياء الله ورسله عليهم أفضل الصلاة والتسليم ، ولن يصلح

آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

الفصل الأول

المبحث الأول :

صور من الظلم في القديم
والحديث

المبحث الثاني :

الأدلة من الكتاب والسنة على
تحریم الظلم



تمهيد

الظُّلْمُ : وَضَعُ الشَّيْءِ فِي غير موضعه . ومن أمثال العرب في الشُّبْهِ :
من أَشَبَّ أَبَاهُ فما ظلم ؛ قال الأصمعي : ما ظَلَمَ أي ما وَضَعَ الشُّبْهَ في غير مَوْضِعِهِ .
وفي المثل : من اسْتَرْعَى الذُّبَّ فَقَدْ ظَلَمَ .

وأصلُ الظُّلْمِ : العَجَورُ ومُجَاوِزَةُ الحَدِّ ، ومنه حديث الوضوء : فمن زاد
أو نَقَصَ فقد (١) أَسَاءَ وظَلَمَ ، أي أَسَاءَ الأَدَبَ بِتَرْكِ السُّنَّةِ والتَّأَدُّبِ بِأَدَبِ
الشرع ، وظَلَمَ نَفْسَهُ بما نَقَصَهَا من الثَّوَابِ بِتَرْكِ المَرَاتِ في الوضوء .

وَالظُّلْمُ : الميل عن القصد ، والعرب تقول : الزم هذا الصوب ولا تَظْلِمْ
عنه ، أي لا تَجْرِ عنه ، والمُتَظَلِّمُ : الذي يَشْكُو رَجُلًا ظَلَمَهُ ، ويقال : تَظَلَّمَ
فُلَانٌ إِلَى الحَاكِمِ مِنْ فُلَانٍ ، فَظَلَّمَهُ تَظْلِيمًا ، أي أَنْصَفَهُ مِنْ ظَالِمِهِ ، وَأَعَانَهُ
عليه . وَالظَّلْمَةُ : المَانِعُونَ أَهْلَ الحُقُوقِ حُقُوقَهُمْ (٢) .

وقال ابن حجر العسقلاني :

« والمظالم جمع مظلمة مصدر ظلم يظلم ، واسم لما أخذ بغير حق .
والظلم وضع الشيء في غير موضعه الشرعي ، والغصب أخذ حق الغير بغير
حق » (٣) .

١ — حديث الوضوء : رواه أحمد في المستد [٦٦٨٤] ، وابن ماجه في الطهارة [٤٢٢] ، والنسائي :
٨٨ / ١ كلهم من حديث موسى بن أبي عائشة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وإسناده حسن .
ولفظه « أو نقص » الواردة عند أبي داود متكررة أو شاذة ، والنقص جائز ، والآثار بذلك صحيحة . عن
هامش زاد المعاد .

٢ — انظر فعل [ظلم] لسان العرب ، والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير : ٣ / ١٦١ .

٣ — فتح الباري ، كتاب المظالم ٦ / ٢٠ ، الحلبي .

وقال ابن الجوزي :

« الظلم يشتمل على معصيتين : أخذ مال الغير بغير حق ، ومبارزة الرب بالمخالفة ، والمعصية فيه أشد من غيرها لأنه لا يقع غالباً إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار ، وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب لأنه لو استنار بنور الهدى لاعتبر ، فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى اكتنفت ظلمات الظلم الظالم حيث لا يغني عنه ظلمه شيئاً » (٤) .

وجميع أفعال قوم مدين وأقوالهم تندرج تحت ما ذكرناه من تعريفات الظلم اللغوية والشرعية .. لقد ظلموا ربهم سبحانه وتعالى فعبدوا غيره ، وظلموا الناس فاعتدوا على أموالهم وأنفسهم بغير حق ، وظلموا أنفسهم فتفشيت بينهم الذنوب والمعاصي والمنكرات ، وكان نظام حياتهم من أوله إلى آخره يقوم على الظلم .

وتكاد رسالة شعيب عليه السلام بعد الدعوة إلى وحدانية الله تعالى تكون قاصرة على محاربة الظلم والتنديد بالظالمين ، وكذلك أنبياء الله الذين سبقوه أو الذين جاءوا بعده كانوا دعاة إلى العدل والمساواة والمحبة ، ولما لهذا الموضوع من أهمية فقد قسمنا هذا الفصل إلى المبحثين الآتيين :

المبحث الأول : صور من الظلم في القديم والحديث .

المبحث الثاني : الأدلة من الكتاب والسنة على تحريم الظلم .

٤ - فتح الباري : ٦ / ٢٥ ، المعلى .

المبحث الأول

ظهور من الظلم في القدير والحديث

رافق الظلم بني آدم منذ بداية وجودهم على هذا الكوكب الأرضي ، وأقدم أحدهم على قتل أخيه ظمأ وحسداً . قال تعالى :

﴿ وَأَوَّلَ عَلَيْهِم نَبَأُ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٥) .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ (٦) مِنْ دَمِهَا ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ » (٧) .

ثم انتشر القتل ، وكثر الظلم بعد جريمة ابن آدم الأول .. حتى أصبحت الحروب تنشب بين الدول والقبائل لأنفقه الأسباب .. وإذا نشبت فيكاد لا ينطفئ لهيبها ولا يخمد أوارها .. وقد تغلب دولة أو قبيلة على أخرى حيناً من الزمن ، ولكن الدولة أو القبيلة المغلوبة تنور عندما تستكمل أسباب القوة لتدفع عن نفسها البغي والظلم والهوان ، وتحاول أن ترد الصاع صاعين .

وكان الظلم في المجتمع الجاهلي يعني القوة والشجاعة والعزة ، قال زهير ابن أبي سلمة في معلقته المشهورة :

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه

يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

٥ — سورة المائدة ، الآية : ٢٧ .

٦ — الكفل : بكسر أوله وسكون الفاء : النصيب ، وأبخر ما يطلق على الأجر .

٧ — البخاري ٦ / ٢٦٢ ، ومسلم ٣ / ١٣٠٣ ، والترمذي ٢ / ٩٢ من حديث ابن مسعود مرفوعاً

فالإنسان في المجتمع الجاهلي إما أن يكون ظالماً أو مظلوماً ، وليس هناك حل وسط . وقد جاء هذا الوصف من شاعر كان يُنقَرُّ من الحرب والقتال ، ويدعو إلى السلم وإصلاح ذات البين ، ومع ذلك لم يترفع كثيراً عن مستوى العصر الذي كان يعيش فيه .

وعرفت البشرية بعد بعثة المصطفى ﷺ عدلاً ومساواة وأمناً لم تعهدها من قبل ، ولم تعرفها الأنظمة التي أبت الانقياد والاستسلام والإذعان لأوامر الله ونواهيهِ ، ومازال المسلمون في بحبوحه من الخير والعدل والأمان إلى أن تعددت فرقهم ، وصاروا شيعاً وأحزاباً وأصبح بأسهم بينهم . وهنا تغيرت الأحوال ، واجتاح التار والصليبيون واليهود بلدان العالم الإسلامي مرات ومرات ، فنشروا فيها الفساد ، واستغلوا شعوبها في محاربة أعدائهم وبناء مؤسساتهم الشامخة ، وفضلاً عن هذا وذاك فقد أربعوا الآمنين ، وطاردوا الدعاة وكموا أفواههم ، وبعد الجهاد الدائب خرجت جيوشهم دون أن تخرج أفكارهم ومعاييدهم ومؤسساتهم .

وخلف الأميركيكان والسوفييت الإنجليز والفرنسيين في استعمار بلدان العالم ، وابتزاز أموال الشعوب ، ونهب خيراتهم .. وهما يتسابقان من أجل تحقيق مزيد من التسلط والهيمنة ، ويستخدمان وسائل همجية يترفع عنها أقوام : نوح ، وإبراهيم ، وعاد ، وثمود ، ومدين ، وعرب الجاهلية ، ومن هذه الوسائل : تفجير الصراعات الطائفية ، والعرقية ، والقومية ، والمذهبية في بلد من البلدان ، أو بين دولتين متجاورتين ، وتسارع الولايات المتحدة الأميركية إلى تبني طرف من أطراف النزاع ، وتقديم له الأسلحة الفتاكة بأسعار تفرضها كما تشاء ، ويلجأ الطرف الآخر مرغماً إلى الاتحاد السوفياتي أو إلى كنف دولة من دول المعسكر الاشتراكي ، فتفضل بتقديم الأسلحة المدمرة والخبراء الشيوعيين لهم .

ومن المؤسف أن هذه الحروب التي يفتعلها الأميركيكان والسوفييت لم تهدأ منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، وفي كل مرة تتوتر الأجواء بين الدولتين العظميين ،

ويرتعد العالم خوفاً وذعراً من حرب عالمية نووية جديدة .. وفجأة يلتقي زعيما الدولتين ، ويتفقان على حل مابيهما من خلافات ، وتهدأ الزوبعة المفتعلة ، ويتنفس الناس الصعداء ، ثم يتبين فيما بعد أن الزعيمين : السوفيياتي والأميركي لم يتفقا في اجتماعهما المغلق على تحقيق السلام في العالم ، ولا على وضع حل عادل للتسابق النووي ، ولا على التنافس في عمل الخير .. لم يتفقا على شيء من ذلك ، وهيهات لهما أن يفكرا بخير الإنسان وسعادته ، وإنما اتفقا على مقايضة صفقة بصفقة ، والصفقة ليست قمحاً ولا بترولاً ولا ماشية ، وإنما هي بلاد وشعوب واسترقاق من نوع جديد لأعهد للبشرية به من قبل .. وهكذا أصبح العالم قسمين : غربي تقوده الولايات المتحدة الأميركية ، وشرقي يتزعمه الاتحاد السوفييتي ، وليس هناك حياد ، سواء كان هذا الحياد إيجابياً أم غير إيجابي .

ولم تتغير الأحوال بعد رحيل الانجليز والفرنسيين عن بلادنا . لقد سلموا مقاليد الحكم في معظم بلدان العالم الإسلامي لتلامذتهم الذين تربوا في معاهدهم وجامعاتهم ، وتخلقوا بأخلاقهم ، وكان التلامذة أشد استبداداً وتنكيلاً وظلماً من المستعمرين ، ولهذا فقد أخذ الناس يبحثون مرة أخرى عن منقذ ينقذهم ، وكانت هذه الأجواء الآسنة أرضية خصبة لقيام عدد من الانقلابات العسكرية في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي ، وزعم قادة هذه الانقلابات أنه ليست عندهم أطماع في الحكم ، وسوف يعودون إلى ثكناتهم عندما يصبح الشعب وُلّي أمره ، وتحقق الأمور التالية :

- القضاء على الاقطاع وسوء توزيع الثروة .
- القضاء على الرق بمختلف أشكاله وصوره .
- تحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة بين المواطنين .
- تحقيق الوحدة بين جميع البلدان العربية .
- تحرير فلسطين من العدو الصهيوني الدخيل .
- مكافحة الاستعمار وجيوبه في الداخل والخارج .

- سيادة القانون ، ومحاربة التسلط والاستغلال .
- حرية المواطن في التعبير عن معتقداته وأفكاره .

ويسارع دهماء الناس — بل وخاصتهم في حالات كثيرة — إلى تصديق أقوال القادة الجدد ، لأنهم سئموا الفساد وغلاء الأسعار ، وهيمنة حفنة من أصحاب رؤوس الأموال ، وبشكل أوضح فالناس يريدون الخلاص من النظام القديم ، ويحبون الشعارات الجديدة ، وتقترن في أذهانهم صورة العسكريين مع هذه الشعارات فيؤيدونهم ، ويصفقون لهم ، ويظنون أن عهد الظلم قد ولى إلى غير رجعة ، وأنه قد أظلمت أيام ستكون كأيام المهدي في آخر الزمان ، حيث ستملأ الأرض عدلاً ورخاء بعد أن ملئت ظلماً وجوراً ... وتمضي الأيام والشهور والسنون ، والانتاج الزراعي يتناقص ، والمصانع تتوقف عن العمل بسبب إفلاسها ، والبطالة يستفحل شرها ، وعدد السكان يتضاعف ، والاستبداد تترسخ جذوره ، والحریات تصدر ، والعسكريون يسمون الأمور بغير أسمائها : فالكبت والإرهاب عندهم حرية وشورى ، والفقر والبطالة والجوع اشتراكية وثورية ، والتجزئة والتشتت وحدة عريية ، والطريق إلى تحرير فلسطين يمر من عواصم الدول الرجعية ، والأوامر التي يصدرها الحاكم العسكري المستبد هي حكم الشعب كل الشعب واذلاله وقهره . وهذا الذي كان يراه ويعتقده فرعون من قبل ، قال تعالى :

﴿ قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ (٨) .

وبعد أن يبلغ الفساد مبلغه يتحرك عسكريون جدد ، فيطيحون بأساتذتهم بعد انقلاب دموي ، ويزعم القادة الجدد أنهم جاءوا لإنقاذ البلاد من التجزئة وعملاء الاستعمار ، وإنقاذ العباد من الغلاء والفقر والمجاعة ، ويكررون مقولة من سبقهم : سنعود إلا ثكناتنا بعد أن يستتب الأمن ، ويختار الشعب ممثليه .

والشاهد هنا أن الأباطرة — أو إن شئتم فقولوا القياصرة — الجدد يكشفون لنا فضائح سلفهم ، يذكرون الأراضي التي اشتروها بثمن رمزي لأنها من أملاك الدولة ، والمباني والقصور التي اغتصبوها من أصحابها باسم التأميم ، والشركات والمؤسسات التي تم إنشاؤها باسم أقاربهم وأصدقائهم ، ومئات الملايين المودعة في بنوك أوروبا بأسماء مستعارة ، وهم الذين كانوا يصورون أوروبا الغربية في صورة شيطان ، ويوجهون لخصومهم تهمة الخيانة لأنهم أخرجوا أموالهم من بلدهم وأنشأوا بها شركات في أوروبا وغيرها أو أودعوها في بنوك أجنبية ، وخصومهم مافعلوا هذا الفعل إلا خوفاً من مصادرة أموالهم باسم التأميم .

والفضائح التي يتحرج القادة الجدد عن ذكرها ، تكشفها أوراق وزارة الخارجية البريطانية والفرنسية ، أو تكشفها مذكرات كبار المسؤولين في المخابرات الأمريكية ، أو كبار المسؤولين اليهود ، كما فعل وزير خارجية النظام الصهيوني السابق [موشي دايان] في مذكراته .

لقد انتهى عهد الرق بشكله البدائي البسيط ، وبدأ عهد الاسترقاق السياسي في ظل هذه الأنظمة العسكرية المستبدة وأمثالها ، فالمواطن فيها لا يأمن على نفسه وولده وماله :

— لا يأمن المواطن على نفسه ، لأنه قد يتم اعتقاله في أية لحظة ، وإذا اعتقل ، فقد يقتل أو يعيش بقية عمره في زنزانه ، لا يقبل أن يعيش فيها كلب أو قرد ، ولا يحتاج النظام إلى تهمة تبرر الاعتقال أو القتل ، فأقوال الطاغوت دستور وقانون لا يجوز لأحد مخالفتها أو التردد في تنفيذها ، وقد يكون المعتقل المسكين أقدم على نقد النظام في غرفة مغلقة أمام صديق من أصدقائه أو قريب من أقربائه ، ويتبين أن هذا الصديق أو القريب عين من عيون السلطة .

— ولا يأمن المواطن على ولده ، فقد يعتقل كما اعتقل أبوه ، وقد يدعى إلى الخدمة العسكرية الاحتياطية ، ويفرض عليه خوض معركة دفاعاً عن النظام ضد أهله وذويه ، أو قد تكون المعركة مع العدو لكنها مفتعلة ، ويريد النظام

من ورائها مكاسب دنيئة .

— ولا يأمن المواطن على ماله وأرضه ، فقد تصدر باسم التأميم ، أو باسم مصلحة الوطن العليا ، أو لأن المواطن اضطر إلى الفرار من بلده خوفاً من البطش والتنكيل ، فصادر الظالمون أمواله المنقولة وغير المنقولة .

انتهى عهد الرق ، وبدأ عهد الاسترقاق الاجتماعي ، فالخدم يتم استيرادهم كما يستورد السكر ، والشاي ، والبصل ، والقمح ، والأرز ، والملابس . وهناك مؤسسات وشركات تتاجر بالخدم ، ولها نسبة معينة من الأرباح ، والقوانين الأرضية الحائدة عن منهج الله تنظم هذه التجارة وتحميها ، ومعظم السادة يعاملون خدمهم معاملة لاتليق بالبهائم ، ولا أقول الكلاب لأنها مدللة مخدومة عند هؤلاء الناس ، فهم لا يسمحون لزوج الخادمة بزيارتها ، أو مشاركتها في الخدمة شريطة أن يسكن معها في غرفة واحدة ، وكذلك الحال مع أولادها ، وتعيش المسكينة بضع سنين بعيدة عن أولادها وزوجها وأهلها وأترابها ، تتمنى أن يكون الصغير الذي تخدمه ابنها ، وقد تحمل الصبر على أمور كثيرة ، لكنها لاتحمل الضرب والشتم والإهانة ، وفي كثير من الحالات تصاب الخادمة بانهيار عصبي ، فتقتل أحد مخدوميها ، وتعيش بقية عمرها في السجن أو في مستشفى الأمراض العصبية .

انتهى عهد الاقطاعيين والمرابين والمحتكرين بصورته القديمة ، وبرزت طبقة اقطاعيين ومرابين ومحتكرين من نوع جديد . إنها طبقة رئيس الانقلاب وحاشيته التي تتألف من شركائه في الحكم ، وأقاربه ، ورجال حزبه ، وقادة حرسه .. وشتان شتان ما بين الطبقتين :

فالطبقة القديمة — على ما بها من فساد وانحراف — لاتخلو من إيجابيات من أهمها : الحرية ، وتشغيل اليد العاملة ، وقدر معين من التنافس بين التجار ، ومثانة الاقتصاد . أما رجال الطبقة الجديدة فمهمتهم السلب والنهب والقهر والتسلط ، ولهذا كثرت البطالة ، وأفلست المصانع ، وانهار الاقتصاد ، ورغم ذلك لا يستطيع المواطن أن يجاهر بالحقيقة .

كان الاقطاعي فيما مضى مسؤولاً عن الأرقاء الذين يملكهم ، فالرقيق يعيش مع زوجه وأولاده يأكلون ويلبسون تحت مظلة سيدهم ، أما الخادم في العصر الذي أسموه عصر الديمقراطية والتقدمية فلا يسمح له سيده أن يحضر معه زوجه .

إن الاقطاعيين الجدد يمنعون المزارعين من بيع محاصيلهم في الأسواق المحلية أو تصديرها إلى الخارج ، وتبتاع السلطة هذه المحاصيل بأبخص الأسعار ، ثم تبيعها للمواطنين الفقراء أو تصدرها إلى الخارج بأضعاف ثمن شرائها ، وقد يعود الفلاح المنكوب إلى السلطة ليتاع منها ما يحتاجه لزراعة أرضه ... لهذا ولغيره يتمنى معظم الفلاحين الذين كانوا يعملون في حقول ومزارع الاقطاعيين أن تعود الأمور كما كانت ، ويتخلصوا من جحيم الاقطاعيين الثوريين الجدد .

أما ما يذكره الثوريون عن صراع الطبقات في العهد الماضي ، وقولهم : لقد حططنا طبقة المحتكرين الذين كانوا يستعبدون العمال والفلاحين ، وأصبح الفلاح سيد حقله ، كما أصبحت المصانع للعمال . لقد حطموا طبقة الاقطاع والمحتكرين ، وأصبحوا بديلاً عنهم ، بل أكثر منهم جشعاً واحتكاراً واستعباداً للعمال والفلاحين ، وكان العمال والفلاحون يتظاهرون ويضربون عن العمل دفاعاً عن مصالحهم ، ويفرضون على أصحاب المصانع زيادة أجورهم ، وإذا عجزوا عن تحقيق مطلب من مطالبهم ، فلا يستطيع أصحاب المصانع إعدام أحد منهم أو اعتقالهم لأجل غير مسمى . أما الاقطاعيون الاشتراكيون فلا يسمحون للعمال والفلاحين بالتظاهر ، لأن هذه المظاهرات — على حد زعمهم — مؤامرة صهيونية استعمارية ضد استقلال البلد ومكاسب الشعب ، ومن يفعل ذلك فجزاؤه السجن أو القتل .

إن تاريخنا لا يعرف صراعاً طبقياً مثل هذا الصراع ، فالقادة الذين ابتليت بهم أمتنا ، أصبحوا قياصرة ، وأباطرة ، ومن كبار المحتكرين وأصحاب رؤوس الأموال في العالم ، ورغم ذلك تزعم أجهزة إعلامهم بأنهم مصلحون اشتراكيون

ورواد مناضلون ومالئى ذلك من كلمات جوفاء رنانة ، وشعوبنا مقهورة مغلوبة
على أمرها لا يستطيع الجياع من أبنائها أن يقولوا : نحن جياع !!

تذكرني هذه الأوضاع المؤسفة بحوار طريف يحكى أنه جرى بين
الاسكندر المقدوني وعصابة من قراصنة البحار : كان الاسكندر من كبار الحكام
الذين يملكون ممالك تكاد لاتغيب عنها الشمس ، وذات يوم جاءه رجال أمنه
بعصابة من اللصوص . فقال لهم : أنتم قطاع طرق وقراصنة . قالوا : نحن
لانتكر أننا قراصنة وقطاع طرق ، ولكننا نسرق سفينة أو سفناً محدودة في بحر
من البحار ، وعددنا محدود جداً لايتجاوز بضعة أفراد ، أما أنت فأكبر قاطع
طريق في العالم لأنك تفتصب السفن ، والبحار ، والأنهار ، والأنعام ، والتجارة ،
والزراعة ، وسائر موارد الدولة وتفعل بهذه الأموال مانشاء ، أما أفراد عصابتك ،
فرجال الحكومة والجيش والأمن ، فمن الذي أباح لك هذا وحرمه علينا ؟!

وإذا كنا لانملك أدلة تثبت أن قصة القراصنة مع الاسكندر قد حدثت
فعلاً ، فعندنا أدلة أكيدة تدل بها القراصنة الثوريين الجدد . ومن هذه الأدلة
الأكيدة نختار المثالين الآتيين :

المثال الأول :

جندي باطني من بلاد الشام ، كان آخر رتبة حصل عليها رقيباً في
الشرطة ، وكان راتبه الشهري لايتجاوز أربعين دولاراً ، وكانت زوجته رقم
[١] مدرسة ، وكان يستعين براتبها ليمضي بقية الشهر لأنه من المدمنين على
الخمرة وغيرها . دارت الأيام دورتها ، ووصل شقيقه إلى المحكم بطريقة
مشبوهة ، وخلال زمن يسير جداً أصبح الرقيب ملازماً ، ثم رائداً ، ثم مقدماً ،
ثم عقيداً ، ثم لواءً ، ثم حصل على شهادة الدكتوراه من جامعات موسكو ،
ثم نائباً لأخيه ... وجميع الرتب التي حصل عليها تهون أمام الأرقام الخيالية

من الأموال التي يملكها ، فهو يتنقل ومنذ أكثر من عامين (٩) في أوروبا ترافقه حاشية يزيد عددها على مئتي رجل وامرأة ، وينفق من الأموال ما يزيد على مليوني دولار في كل شهر ، ويعقد صفقات تجارية تقدر بمئات الملايين من الدولارات ، فهل سمعتم أو رأيتم أن رئيساً أو زعيماً أو إقطاعياً أو تاجراً في بلاد الشام كان يملك أو ينفق ربع أو عشر ما يملكه وينفقه هذا الضابط الثوري المغمور ؟! . أما الجرائم التي اقترفها ، والأخاديد التي حفرها ، والأرواح التي أزهقها ، فليس هذا هو موضع الحديث عنها .

المثال الثاني :

ضابط صغير من أرض الكنانة ، نشأ وترعرع في بلاط فرعون هذا العصر الذي كان يكنى برائد القومية والاشتراكية ، وصاحب قرارات التأميم ، والذي كان يكرر في خطبه نقد « عبود باشا » أحد كبار الإقطاعيين في مصر ، ويزعم أنه جاء ليحرر مصر من عبود باشا وأمثاله . كان هذا الضابط المغمور مديراً لمكتب الرجل الثاني في نظام فرعون ، وكان أحد كبار المسؤولين عن تعذيب واضطهاد العلماء والدعاة والمفكرين في سجون ومعتقلات : القناطر ، والواحات ، والحربي ، وغيرها وغيرها ... ثم أصبح الضابط وزيراً ، وكان يعيش مع سيده — أعني الرجل الثاني في النظام — حياة حافلة بالعبث والصخب والمجون ، كانوا يسهرون الليالي الحمراء مع الفاجرات والراقصات اللواتي كان لبعضهن صلات مع نظام العدو الصهيوني في فلسطين المحتلة ، وكانوا يشربون الخمر ويتناولون المخدرات بنهم يتصدرهم الرجل الثاني في نظام فرعون .. وكان بعض رجال الحاشية من كبار تجار المخدرات ، ويتزعمون بعض عصابات تجارة المخدرات في مصر ، وكان اليهود هم الذين يصدرون معظم المخدرات إلى مصر لأنهم يعرفون أين تذهب ، ومأمصير الذين يدمنون عليها ، وبسبب

١ — كُتِبَ هذا البحث في منتصف عام ١٤٠٧ هـ .

هذا وغيره كانت هزيمة حزيران ١٩٦٧ م .

لجأ هذا الضابط المغمور إلى أوروبا الغربية ، بعد هلاك فرعون ونائبه ، وبعد ملاحقة القضاء له بسبب الجرائم التي ارتكبها ضد المعتقلين في سجون مصر ، وفي أوروبا برز اسمه كتاجر من كبار تجار النقل البحري فيها ، ويعقد الصفقات بمئات الملايين من الجنيهات الاسترلينية ، فمن أين جاء هذا الضابط المغمور و « اللورد » الجديد بمئات الملايين ؟! ، أمن تجارة المخدرات ، أم من صفقات الأسلحة ، أم من الاختلاسات التي كان يختلسها ؟!

ليس أمامنا إلا هذه الاحتمالات ، لأن راتبه لو تقاضاه منذ ولدته أمه واستمر طوال سني عمره مع المكافآت وبدلات الجلد والتعذيب لما بلغ مليون جنيه استرليني ، ومثل هذا المبلغ تبرع به فعلاً لمؤسسة صليبية غربية ، بل لا يكفي مثل هذا المبلغ ليضع احتفالات من الاحتفالات الكثيرة التي يقيمها لخاصة أصحابه من الرجال والراقصات ، ويقدم فيها الخمر والمخدرات . وهذا الضابط المغمور هو أحد أركان نظام فرعون الذي زعم أنه جاء ليظهر مصر من فاروق وعبود باشا وأمثالهما ، فهل كان فاروق وعبود باشا وغيرهما من الإقطاعيين والمحتكرين أكثر إجراماً وفجوراً وتبذيراً لأموال الأمة من هذا الدعي وأسياده ومن هم على شاكلته ؟! . وأنا لأدافع عن فاروق وعبود باشا وأمثالهما ، وقد قلت فيما مضى : إنهم عملاء للمستعمر ، ومن جهة أخرى فقد كان استبدادهم وانحرافهم وفسادهم مبرراً لهذه الانقلابات التي فعلت الأفاعيل في عالمنا الإسلامي .

وفي أرض الكنانة وبلاد الشام وبلدان أخرى من عالمنا الإسلامي نماذج كثيرة وكثيرة جداً لهذين الضابطين المغمورين ... لهذا ولغيره فقد انهار الاقتصاد ، وتضاعفت أسعار المواد الضرورية ، وكثر السلب والنهب ، وأصبحت الرشوى وكأنها ضريبة من الضرائب التي تفرضها الدولة على المواطنين ، وكل عام يمر علينا تزداد الأحوال الاقتصادية سوءاً واضطراباً ، وثالثة الأثافي الديون الخارجية التي تحولت إلى لون من ألوان الاستعمار الحديث ،

ولا تعلم الحقيقة إذا قلنا إن بعض بلدان العالم الإسلامي مهددة بالمجاعة ، بل بعضها يعاني مجاعة فعلاً كما هو الحال في السودان وبعض دول أفريقيا وجنغلاش ، مع أن بلادنا من أكثر بلدان العالم خصوبة وعطاءً .

وعندما تتعالى الهمسات ، وتتحول إلى صيحات استنكار ، يخشى الانقلابيون الثوريون من ثورة شعبية جارفة تقتلعهم من جذورهم فيسارعون إلى إنشاء مؤسسات حكومية لمكافحة الغش والرشاوى والتلاعب بالأسعار ، ويضطرون إلى اتخاذ موقف حازم ، ويفرضون عقوبات صارمة على كل من يتلاعب بالأسعار ، ويبطشون بعدد من رفاقهم تخديراً لمشاعر الناس ، ويزعمون أنهم سيحسمون المشكلة خلال أشهر ، وتمضي الشهور والأعوام والمشكلة تزداد خطورة ، ويفاجأ الناس بأن الرفاق الذين بطشوا بهم لم يكن لهم علاقة بغلاء الأسعار ، وقد ذهبوا ضحية بسبب خلاقات مزمنة بينهم ، أما التجار والباعة فيتفننون في التلاعب والتضليل ، ويسهل عليهم شراء ضمائر المسؤولين عن مكافحة الغش ... وبعد حين تحتاج مؤسسات مكافحة الغش إلى مؤسسات أخرى لمراقبتها ومكافحة ما وقعت به من غش وسرقة ، وكم في بلادنا من أمثلة تؤكد على أن الذين يكافحون تهريب المخدرات ضالعون في عصابات عالمية لت تهريب المخدرات ، وأن الذين يكافحون تهريب النقود وغيرها من الأشياء المحذورة هم الذين يهربونها .

وإذا عمل في مسؤولية هذه المؤسسات رجل مستقيم يخشى الله ، فسوف يجد نفسه محاطاً بأجواء خائفة مسمومة ، فهذا يزدريه ، وذاك يعرض عنه ، ومعظم من حوله في المؤسسة يكيدون له ، وقد يظن صاحبنا أن العيب في المؤسسة وليس في غيرها ، ويلجأ إلى الجهات العليا محاولاً الإصلاح ، وربما استقبلوه استقبالاً جيداً ، وأحسنوا الإصغاء لما يقول ووعدوه بالتغيير ووضع الأمور في مواضعها الصحيحة ، ولكنه يجد نفسه بعد وقت قصير منقولاً إلى مؤسسة أخرى ، وليس له فيها عمل ، أو ربما كلفوه بعمل لا يتناسب مع مواهبه ومؤهلاته ... والعجيب أنه قد يُزج به في السجن بتهمة الرشوى

والاختلاس ، وحيث يعلم المسكين بأن للمرتشين واللصوص الثورين وغيرهم عصابات هرمية في معظم دوائر الدولة ومؤسساتها ... وهذه بعض آثار المستعمرين في بلادنا .

قد يقول من يقرأ هذه الأسطر : إن المؤلف بالغ أشد المبالغة فيما ذكره عن آثار الانقلابات العسكرية وأمثالها في بلادنا ، كما أنه بالغ فيما ذكره عن مؤسسات مكافحة الغش ، وربما كان يعرف نماذج وأمثلة سلبية قليلة فعصم الحكم وأطلق القول ، ونظر إلى الواقع بمنظار مأساوي .. لهؤلاء أقول :

لقد أوجزت القول فيما ذكرت لأنني اكتفيت بالحديث عن الظلم الذي يتصل بموضوع هذا الكتاب ، ولو شئت الحديث عما تعانيه أمتنا من ظلم وقهر لكتبت مجلدات ومجلدات مزدحمة بالأرقام والأسماء والاحصائيات ، وما أشرت إليه في هذا البحث ليس سرّاً من الأسرار ، ويستطيع من يشاء أن يطلع على الفضائح التي نشرت في الصحف والمجلات ووكالات الأنباء ، ويستطيع أيضاً أن يقرأ عشرات الكتب التي ألفها الرفاق بعد أن انقلب الود بينهم إلى ضده ، وما أكثر العداوات والبغضاء والحروب التي تقع بين الرفاق ، وهم الذين يقولون : الثورة كالقطة تأكل أولادها ، كما يستطيع الباحث عن الحق الاتصال بمكاتب ومؤسسات الضابطين المغمورين اللذين تحدثت عنهما قبل صفحات من هذا البحث ... وهناك وسائل أخرى كثيرة للمعرفة ليس هذا موضع الاسترسال في تعدادها وبيان كيفية الوصول إليها .

أما الدعاة المصلحون الذين يستغربون ما كتبناه ، وما سوف نكتبه إن شاء الله عن الظلم والتسلط والفساد ، فننصحهم أن يحيطوا بأمراض عصرهم ومشكلاته ، ولن يحل هذه الأمراض والمشكلات إلا من كان يعرف حجمها ، وزمن تشوئتها ، ومن الذين أصيبوا بعدواها ، وما البديل عنها ... وليعلم إخواننا الدعاة أن الدنيا ليست قاصرة على مساجدهم ، وبيوتهم ، وأقربائهم ، والقلّة القليلة من أصدقائهم ، والكتب التي ألفوا دراستها ، فهناك جوانب أخرى من المجتمع يجب الاطلاع عليها ، ومعرفة ما يحدث فيها .

وبعد :

« لقد شهدنا والحمد لله فشل الظالمين المفسدين الذين رباهم الاستعمار وصنعهم على عينه ، وجعل منهم أبطالاً ومناضلين ومتقدين وقادة ، وسلمهم زمام الأمور قبل أن يرحل عن بلادنا ، فكانوا أسوأ خلف لأسوأ سلف ... وشهدنا فشل الأحزاب : الاشتراكية ، والرأسمالية ، والقومية ، وسائر دعاة العلمانية وأصحاب العقائد المستوردة الدخيلة ... شهدنا فشلهم ، وتكشفت مخازيهم لجميع أصحاب العقول والأبصار » (١٠) .

وسوف نمضي في رحلتنا الممتعة الشيقة مع أنبياء الله عليهم أفضل الصلاة والتسليم في دعوتهم وجهادهم ، فطريقهم هو الطريق الموصل إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى ... سنمضي ونحن نردد :

إذا لم تكونوا مثلهم فتشبهوا
إن التشبه بالكـرام قـلاح

١٠ - انظر باب « مأثبه الليلة بالبارحة » في كتاب دراسات في السيرة للمؤلف .

المبحث الثاني

الأدلة من الكتاب والسنة على تحريم الظلم :

أولاً — الأدلة من الكتاب .

ثانياً — الأدلة من السنة .

ثالثاً — أنواع الظلم .

رابعاً — نصر المظلوم .

خامساً — نظرية شاملة .

أولاً . الأكلة من الكتاب

في كتاب الله الكريم يضع مئات من الآيات القرآنية التي تحدثنا عن الأمم والشعوب التي أهلكها الله سبحانه وتعالى بسبب ظلمها وفسادها في الأرض وجعلها عبرة لمن يعتبر ، وتنفر هذه الآيات من الظلم والظالمين ، وتحذر من محسوق والعصيان ، وتدعو إلى وجوب التزام العدل في القول والعمل .

وإذا كان من المتعذر استقصاء هذه الآيات في مثل هذا البحث ... فتكفي باختيار نماذج منها :

— في وقت مبكر من بعثة المصطفى ﷺ أنزل الله سبحانه وتعالى آيات قرآنية تحذر من تطفيف الكيل ، ولذلك سبب مهم ، فمكة المكرمة إبان البعثة كانت مركزاً تجارياً مهماً ، وكانت صلة الوصل بين اليمن والشام من جهة ، وبين الحيشة ومناطق شرق الجزيرة العربية من جهة أخرى ، وكان التجار وأصحاب الحاجات من القرى والوادي يتدفقون عليها ليتاعوا كل ما يحتاجون إليه من طعام ولباس ... وكذلك كان حال يثرب — أي المدينة المنورة — ، وإن كان مركزها التجاري أقل شهرة من مكة . ومن هنا يظهر الشبه واضحاً بين مركز مدين التجاري ، عند بعثة شعيب عليه السلام ، ومركز مكة والمدينة عند بعثة المصطفى ﷺ .

قال تعالى :

﴿ وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ، لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١١) .

١١ — سورة المطففين ، الآيات : ١ — ٦ .

والمطفف : الذي لا يوفي الكيل . وقال الزجاج : إنما قيل : مطفف ، لأنه لا يكاد يسرق في الميزان والمكيال إلا الشيء الطفيف ، وإنما أخذ من طَف الشيء وهو جانبه .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ أي : من الناس ، فكانوا إذا اكْتَالُوا من الناس استوفوا عليهم الكيل ، وكذلك إذا اتزنوا ، وإذا كَالُوا أو وزنوا لهم ينقصون . قال ابن عباس رضي الله عنهما :
« عندما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أحبب الناس كيلاً ، فأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَلْ لِلْمُطَفِّينَ ... ﴾ وبعد نزول هذه الآيات أحسن أهل المدينة الكيل والوزن » (١٢) .

وقال تعالى :

﴿ أَلَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ (١٣) .

وقال :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (١٤) .

قوله : ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ أي : بالميزان العدل الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب .

وقوله : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ : العهد عام فيما بين العبد وبين ربه ، وفيما بينه وبين الناس ، وقال آخرون : كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد .

١٢ — انظر ابن ماجه ٢ / ٧٤٨ ، والطبري ٣٠ / ٩١ ، وأورده السيوطي في [الدر] ٦ / ٣٢٣ وزاد نسبه إلى الطبراني وابن مردويه والبيهقي في [شعب الإيمان] بسند صحيح عن ابن عباس . عن حاشية زاد المسير . وانظر الصحيح المستند من أسباب النزول ، ص ١٧٠ للشيخ مقبل بن هادي الوادعي .

١٣ — سورة الرحمن ، الآيتان : ٨ ، ٩ .

١٤ — سورة الإسراء ، الآيتان : ٣٤ ، ٣٥ .

— وعن حال الظالمين يوم القيامة بقول تعالى :

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ، مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ، وَأُنذِرَ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أُولَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ رُؤَايَا ، وَسَكَتْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ (١٥) .

ومن إبداعات سيد قطب رحمه الله في تفسير هذه الآيات :

« والرسول ﷺ لا يحسب الله غافلاً عما يعمل الظالمون ، ولكن ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتعون ، ويسمع بوعيد الله ، ثم لا يراه واقعاً بهم في هذه الحياة الدنيا ، فهذه الصيغة تكشف عن الأجل المضروب لأخذهم الأخذة الأخيرة ، التي لا إمهال بعدها ، ولا فكاك منها . أخذهم في اليوم العصيب الذي تشخص فيه الأبصار من الفرع والهلع ، فتظل مفتوحة مبهوطة مذهولة ، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك . ثم يرسم مشهداً للقوم في زحمة الهول ... مشهدهم مسرعين لا يلبثون على شيء ، ولا يلتفتون إلى شيء ، رافعين رؤوسهم لا عن إرادة ولكنها مشدودة لا يملكون لها حراكاً . يمتد بصرهم إلى ما يشاهدون من الرعب فلا يطرف ولا يرتد إليهم . وقلوبهم من الفرع خاوية خالية لاتضم شيئاً يعوته أو يحفظونه أو يتذكرونه ، فهي هواء خواء » (١٦) .

وقال تعالى :

﴿وَسَيَعْلَمَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مَنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ (١٧) .

١٥ — سورة إبراهيم ، الآيات : ٤٢ — ٤٥ .

١٦ — في ظلال القرآن ، المجلد الرابع ، ص ٢١١ ، دار الشروق .

١٧ — سورة الشعراء ، الآية : ٢٢٨ .

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية : « والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم » . ١٠ هـ .

— وفي سورة هود أخبرنا جل وعلا عن أحوال المكذبين لأنبياء الله ورسله ، وكيف دمرهم سبحانه وتعالى وفي ختام هذا العرض قال جل من قائل :

﴿ ذَلِكْ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْسِيبُ ، وَكَذَلِكَ أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١٨) .

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل يملئ للظالم ، فإذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ » (١٩) .

— وقال تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ (٢٠) .

— وفي آيات كثيرة بين لنا جل وعلا بأنه يأمر بالعدل والإحسان ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، كما بين لنا جل وعلا بأنه يحب المقسطين ويكره الظالمين . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٢١) ، وقال :

١٨ — سورة هود ، الآيات : ٩٩ — ١٠٠ ، والحصيد : الذي قد أبيض وحصد ، وتسيب : أي تلميز وإملاك .

١٩ — رواه مسلم في صحيحه ، انظر مختصر صحيح مسلم للعلفوري ، باب في الإملاء للظالم ، الحديث رقم ١٨٣١ .

٢٠ — سورة البقرة ، الآية : ١٦٥ .

٢١ — الممتحنة ، الآية : ٨ .

• أَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ . وقال : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .
 • سَوَّاهُ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٢٣﴾ . وقال :
 • تَمَنَّيْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٢٤﴾ . وقال : ﴿ إِنَّ
 اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْيَعْيِ
 حِكُمْ لَكُمْ تَذْكُرُونَ ﴾ (٢٥) . وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ
 عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٦) .

ثانياً - الأدلة من السنة

— عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال :

« الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا تَهَى
 اللَّهُ عَنْهُ » (٢٧) .

قوله : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ... » من لسانه :
 كالشتم ، والغيبة ، والنميمة ... ومن يده : كالضرب ، أو السرقة ، أو
 الاغتصاب .

وليس المراد في هذا الحديث نفي أصل الإسلام عمن يظلم المسلمين
 كما يعتقد أهل الغلو ، وإنما المراد نفي تمامه وكماله ، فالظالم قد يكون فاسقاً
 أو مجرمًا ، ولا يجوز رميه بالردة والكفر إن كان لا ينكر معلوماً من الدين
 بالضرورة (٢٨) .

٢٢ — البقرة ، الآية : ١٩٥ .

٢٣ — آل عمران ، الآية : ٥٧ .

٢٤ — الشورى ، الآية : ٤٠ .

٢٥ — النحل ، الآية : ٩٠ .

٢٦ — الأعراف ، الآية : ٢٨ .

٢٧ — متفق عليه . انظر الفتح ١ / ٥٤ ، كتاب الإيمان ، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه
 ويده . ط السلفية . ثم قال الحافظ : وهذا من أفراد البخاري على مسلم ، فيلاحظ هذا .

٢٨ — انظر الحكم بغير ما أنزل الله ، وأهل الغلو ، الجزء الأول ، الفصل الخامس ، يدعة تكفير مرتكبي
 الكبائر ، للمؤلف .

ومن فقه هذا الحديث أن مسالمة المسلمين واجبة أصلاً ، ومسالمة غيرهم واجبة تبعاً لهم لمسالمتهم إياهم (٢٩) ، فلا يجوز الاعتداء على أهل الذمة ، أما المحاربون منهم فلا يجب كف الأذى عنهم بل الواجب رد عدوانهم .

— وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روي عن الله تبارك وتعالى ، أنه قال :

« يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم ... الخ » (٣٠) .

— وسأل رسول الله ﷺ المسلمين في حجة الوداع :

« ... فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ . قَالَ : أَلَيْسَ الْبَلَدَةُ ؟ [وفي نسخة : البلد الحرام] قُلْنَا : بَلَى . قَالَ : فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟ قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ . فَقَالَ : أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ ؟ قُلْنَا : بَلَى . قَالَ [فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، وَتَسْلُقُونَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ ، أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا يَعْدي كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ ، أَلَا لِيُبْلَغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَلَعَلَّ بَعْضٌ مَن يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ مَن سَمِعَهُ » ثم قال : أَلَا هَلْ يَلْعَنُ ؟ أَلَا هَلْ يَلْعَنُ ؟ قُلْنَا : نَعَمْ . قَالَ : اللَّهُمَّ اشْهَدْ (٣١) .

وعن معاذ رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله ﷺ فقال :

« إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَأَدْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

٢٩ — انظر المختار من كنوز السنة ، د . محمد عبد الله دراز ، ص ٣٦٢ .

٣٠ — رواه مسلم في صحيحه ، انظر مختصر صحيح مسلم للمذري ، كتاب الظلم ، الحديث رقم ١٨٢٨ .

٣١ — متفق عليه ، والحديث جزء من خطبة الوداع . انظر الفتح ٣ / ٥٧٣ ، كتاب الحج ، باب الخطبة أيام منى ، مسلم كتاب الحج ، باب حجة النبي ﷺ ٢ / ٨٨٦ ، ج ١٤٧ ، ط فؤاد عبد الباقي .

وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خُمْسَ صِلَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَنُفِّذُ عَلَى فَقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ ، (٣٢) .

« والكرائم : جمع كريمة أي نفيسة ، ففيه ترك أخذ خيار المال ، والنكته فيه أن الزكاة لمواساة الفقراء فلا يناسب ذلك الإجحاف بمال الأغنياء إلا إن رضوا بذلك .

قوله : [واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب] أي تجنب الظلم لئلا يدعوك عليك المظلوم . وفيه تنبيه على المنع من جميع أنواع الظلم .

وقوله : [حجاب] أي ليس لها صارف يصرفها ولا مانع ، والمراد أنها مقبولة وإن كان عاصياً كما جاء في حديث أبي هريرة عند أحمد مرفوعاً : [دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه] وإسناده حسن ، (٣٣) .

وقد اكتفيت بهذا القدر من الأحاديث لأن هناك أحاديث أخرى سأذكرها عند الحديث عن أنواع الظلم ووجوب نصرته المظلوم .

أنواع الظلم

١ - الظلم الأكبر : ومن الظلم الأكبر الإلشراك في عبادة الله . قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ لِقْمَانُ لَابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ

٣٢ - أخرجه البخاري في كتاب الزكاة وفي التوحيد ، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، وأخرجه أبو داود في الزكاة ، وأخرجه الترمذي في الزكاة ، والنسائي وابن ماجه في الزكاة .

٣٣ - فتح الباري ، الحاشية ، كتاب الزكاة ، باب أخذ الصدقة من الأغنياء : ٤ / ١٠٢ ، الحطبي .

عظيم ﴿ (٣٤) .

ومن الظلم الأكبر أيضاً الكفر بالله . قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا نَنْصَحُ فِيهِ وَلَا حُلَّةً وَلَا شَفَاعَةً وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٣٥) .

وقال :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجْلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَتَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً ﴾ (٣٦) .

وقال :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُخَيِّ وَيُمَيِّتُ قَالَ أَنَا أُخَيِّ وَأُمَيِّتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣٧) .

فالذين يتعدون حدود الله ، أو يرفضون تحكيم شرعه مجرمون ظلمة ، وإن رفعوا راية العدل والمساواة . قال تعالى :

﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٣٨) .

وقال : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٣٩) .

٣٤ — سورة لقمان ، الآية : ١٣ .

٣٥ — سورة البقرة ، الآية : ٢٥٤ .

٣٦ — سورة الإسراء ، الآية : ٩٩ .

٣٧ — سورة البقرة ، الآية : ٢٥٨ .

٣٨ — سورة المائدة ، الآية : ٤٥ .

٣٩ — سورة البقرة ، الآية : ٢٢٩ .

والذين يتولون الكافرين ظلمة . قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٤٠) .

وقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٤١) .

والذين يجحدون بآيات الله ظالمون ، وإن زعم أنصارهم بأنهم أبطال ومن رواد الوطنية والاستقلال . قال تعالى :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٤٢) .

لقد التبست هذه الحقيقة الناصعة البينة الجلية على أنصاف المثقفين وجمهور العامة من أبناء أمتنا وما أكثرهم ، ومن الأمثلة الكثيرة على ذلك بلاد الشام ، فالتناس فيها قد افتتوا بشخصيات صليبية مشرقة حاقدة ، أو شيوعية كافرة ماكرة ... وكثيراً ما كنت أسمع ناساً من أنصاف المثقفين يقولون لي ولغيري :

إن ميشيل عفلق خير من شيوخكم ودعاتكم ، لأنه نصير للعمال والفلاحين ، ورائد من رواد الوطنية والتحرر والوحدة ، ومناضل جريء ... وكنا نحاول إقناع هؤلاء الضائعين بحقيقة عفلق ، والذين وراء عفلق ، ولكن هيهات ... ومضت الأيام وابتليت بلاد الشام بعفلق وحزبه ، فذاق الناس الويلات

٤٠ — سورة الممتحنة ، الآية : ٩ .

٤١ — سورة التوبة ، الآية : ٩ .

٤٢ — سورة الأنعام ، الآية : ٣٣ .

والنكبات ، ولم يَسَلِّمْ أنصافُ المثقفين هؤلاء !! من جحيم عقل وحرية ، فنفروا منهم أعدم ، وبعضهم لا يزال رهين سجون الوحدة والحرية !! ، وبعضهم الآخر تمكن من الهرب وعاش في المنفى ... وبعد سنين من القهر والبطش والتسلط أدرك المسلمون وغيرهم أن عقل وزملاءه وجميع أعضاء حزبه من أظلم الظالمين !!

ماهكذا يأسعد تورد الإبل ، ولا ينبغي أن تتحكم العواطف الهوجاء بعقولنا ... وحكمنا على الآخرين يجب أن ينطلق من معرفتنا لعقائدهم وتصوراتهم ومناهجهم ، فإن كانوا يهوداً أو نصارى أو شيوعيين أو علمانيين ملاحدة فهم كفر ظلمة ... ولا تتم هذه المعرفة عن طريق التجارب البشرية والممارسات الشخصية ، ولا يجوز بحال من الأحوال أن نضيع ثلاثين عاماً من تاريخ أمتنا لنعرف فيما إذا كان عقل ظالماً أو غير ظالم ... وقد يتعلق أنصاف المثقفين بطاغوت آخر بعد عقل ويجدون من يسير وراءهم في صحراء التيه .

والذي نريده من العلماء الدعاة المخلصين أن يبينوا لجمهور الأمة القواعد والضوابط الشرعية التي نعرف من خلالها الظلم وأنواعه . نريد من العلماء الدعاة المخلصين أن يبينوا لجمهور الأمة معاني ومدلولات قوله تعالى : ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٤٣) ، وقوله : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ (٤٤) وقوله : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (٤٥) وقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ (٤٦) .

إن ظلم الذين يحاربون الله ورسوله ، ويتخذون من أنفسهم آلهة ، ويسخرون من شريعة الله ، ويفترون على الله الكذب ... لا يقارن — ظلم

٤٣ — سورة البقرة ، الآية : ٢٥٤ .

٤٤ — سورة الأعراف ، الآية : ٣٧ .

٤٥ — سورة الأنعام ، الآية : ١٤٤ .

٤٦ — سورة العنكبوت ، الآية : ٦٨ .

مؤلاء — بظلم الذين يغتصبون مالاً أو عقاراً إذا كانوا لا يؤمنون بغير الإسلام
بشاً ، ولأنهم قد يتوبون وينيبون إلى الله تعالى ، فهل يوضح العلماء الدعاة هذه
حقيقة لجمهور الأمة ؟!

هل يوضح العلماء الدعاة لجمهور الأمة حقيقة المستعمرين الجدد من
أميركان والسوفييت ، وأن ظلمهم لا يقارن بظلم قطاع الطرق وزعماء
عصابات ، وهل يبينون حكم موالاتهم ... ويكون ذلك بالأدلة والأرقام ، وليس
بشتائم والعواطف الجوفاء . نرجو ذلك .

٢ — ظلم الناس : وهو ظلم العبد لغيره من عباد الله ومخلوقاته ،
كالاعتداء على أموالهم أو أعراضهم أو أبدانهم ، ومن المؤكد أن الظالم المعتدي
يكون من الأقوياء ، كولاة الجور ، وبعض شيوخ القبائل ، وزعماء الانقلابات
العسكرية وغيرهم وغيرهم ، ولهذا فقد كان بعض السلف يقول : لا تظلم
الضعفاء فتكون من أشرار الأقوياء (٤٧) ... والأحاديث الآتية تبين لنا خطورة
هذا النوع من الظلم .

— عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

« اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك
من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » (٤٨) .

— وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

« لَتَوَدُّنَّ الْحَقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلَحَاءُ مِنَ الشَّاةِ
الْقَرَنَاءُ » (٤٩) . والشاة الجلحاء : الجماء التي لا قرن لها ، ويقاد : يقتصر ..
والقصاص بين الحيوانات يوم القيامة ، ليس من قصاص التكليف ، ومع ذلك

٤٧ — كتاب الكبار ، للإمام المذمبي ، مكتبة الرياض ، ص ١١٥ .

٤٨ — رواه مسلم ، البغاري ، باب تحريم الظلم ، الحديث رقم ١٨٢٩ ، والبغاري ، باب الظلم ظلمات
يوم القيامة .

٤٩ — رواه مسلم ، البغاري ، الحديث رقم ١٨٢٧ .

لأبد من القصاص ، فليتعظ بهذا العقلاء .

— وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال :

« مَنْ ظَلَمَ قَيْدَ شَيْءٍ مِنَ الْأَرْضِ طَوْقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ » . وفيد : أي قدر .

وفي رواية أخرى للبخاري في صحيحه عن سالم عن أبيه [أي عبد الله بن عمر] رضي الله عنهم قال : قال النبي ﷺ :

« مَنْ أَخَذَ مِنَ الْأَرْضِ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ خَسَفَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ » (٥٠) .

— وَعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

« اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنَ الْأَزْدِ يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللَّثِيَّةِ عَلَى الصَّدَقَةِ ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ : هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِي إِلَيَّ ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمِثْبَرِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : أَمَا بَعْدُ فَإِنِّي اسْتَعْمَلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلَانِي اللَّهُ ، فَيَأْتِيَنِي فَيَقُولُ : هَذَا لَكُمْ ، وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي ، أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ إِنْ كَانَ صَادِقًا ، وَاللَّهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ تَعَالَى يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَلَا أَعْرِفُ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةٌ لَهَا خُورٌ أَوْ شَاةٌ تَيْعَرُ ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى زَوَّى بَيَاضُ إِبْطَيْهِ فَقَالَ : اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ » (٥١) .

الرغاء : صوت البعير ، والخوار : صوت البقرة ، وتيعر : أي الشاة تصيح .. وأصوات الحيوانات تقضح المرتشي — وكل من يستغل وظيفته — يوم الحشر والندامة .

٥٠ — رواه البخاري ، فتح الباري ، كتاب المظالم ، باب اثم من ظلم شيئاً من الأرض : ٥ / ٧٤ ، دار المعرفة — بيروت ، وأخرجه مسلم : انظر مسلم ٣ / ١٤٣٩ ، كتاب المساقاة ، باب تحريم الظلم ، ط عبد الباقي .

٥١ — متفق عليه ، البخاري كتاب الزكاة ، باب قوله تعالى : ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ ومحاسبة المصدقين ... انظر الفتوح ٣ / ٣٦٥ ، ط السلفية ، ومسلم ٣ / ١٤٦٣ كتاب الإمارة ، باب تحريم هدايا العمال ، وأبو داود ٣ / ٣٥٤ ، كتاب الخراج والإمارة ، باب هدايا العمال .

— وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ :

« كَانَ عَلَى ثَقَلِ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ كِرْكِرَةٌ فَمَاتَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : هُوَ فِي النَّارِ ، فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فَوَجَدُوا عَبَاءَةً قَدْ غَلَّهَا » (٥٢) .

كان على ثقل : العيال وما يثقل حمله من الأمتعة ، ويشير الرسول ﷺ إلى السبب الذي أدخله النار . والغلول : الخيانة في المغنم . وفي الحديث تحريم قليل الغلول وكثيره (٥٣) .

— وعن أبي أمامة إياس بن ثعلبة الحارثي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« من اقتطع حق امرئ مسلم يمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة . فقال رجل : وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله ؟ فقال : وإن قضياً من أراك » (٥٤) .

اقتطع : أي أخذ . والأراك : شجر معروف يستاك بأعواده .

يطير قلب المسلم الصادق هلعاً وتخور قواه ، وهو يقرأ تلك الأحاديث ويتأمل معانيها ... فمن منا يطيق لهيب جهنم وشررها ثم يكون ذلك مقابل عباءة اغتصبها في الدنيا ؟!

ومن منا يقبل أن تكشف أوراقه وتهتك أستاره يوم الحشر والندامة ، والمخلائق كلها تشهد قضيبته ؟!

ومن منا يقدر على حمل الإبل والأبقار والشيء والخيول ... يحملها وهي تصبح ليعرف أهل المحشر ماذا كان يفعل هذا الظالم في الدنيا ؟!

وهؤلاء المتسلطون الظلمة من ولاة الجور لست أدري كم ستحمل رقابهم من أراض وأنعام وأموال ؟!

٥٢ — رواه البخاري : كتاب الجهاد ، باب القليل من الغلو ، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الجهاد ، باب الغلو ٢ / ٩٥٠ ، ط عبد الباقي .

٥٣ — فتح الباري : ٦ / ١٨٧ — ١٨٨ شرح الحديث للحافظ ، ط السلفية .

٥٤ — رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب وعيد من اقتطع حق مسلم يمينه .. ح ٣١٨ ، ط عبد الباقي .

لقد مضوا بأوزارهم ، وتركوا ما اغتصبوه لأبنائهم ، والأبناء ينفقون المال الحرام فيما يفضب وجه الله من فسق وفساد ، والآباء يعذبون بسبب الظلم ومساء تربية الأبناء .

وإذا كان الظالم من الرعية يخاصمه عدد محدود من المظلومين ، فالحاكم الظالم المتسلط يخاصمه الرعية كلها . قال معقل بن يسار المزني : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« مامن عبيد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاشٍ لرعيته ، إلا حَرَّمَ الله عليه الجنة » (٥٥) . والشاهد هنا قوله ﷺ [.. إلا حرم الله عليه الجنة] ، وقليل جداً من هؤلاء الظلمة من يتعظ ، وبعضهم يمرض ويشتد مرضه ، ويرى الموت بعينه ، ثم يكتب الله له الشفاء ، ومع ذلك لا يرتدع ولا يتوب ، بل يستمر في ظلمه وفجوره والعياذ بالله .

إن الخطب جليل ، والموت آت لا ريب فيه ، ووعد الله حق ، ولا بد من التوبة الصادقة ، فليحذر كل مسلم من الظلم ، وليتق الله الوالد مع أبنائه وأهل بيته ، والرئيس مع مرؤوسيه ، ورحم الله من قال :

فَخِيفَ الْقَصَاصَ غَدًا إِذَا وَفِّيَتْ مَا
كَسَبَتْ يَدَاكَ الْيَوْمَ بِالْقِسْطِ
فِي مَوْقِفٍ مَا فِيهِ إِلَّا شَاخِصٌ
أَوْ مَهْطَعٌ أَوْ مَقْنَعٌ لِلرَّاسِ
أَعْضَاؤُهُمْ فِيهِ الشُّهُودُ وَسُجُنُهُمْ
نَارٌ وَحَاكِمُهُمْ شَدِيدُ الْبَاسِ
إِنْ تَمُطَّلِ الْيَوْمَ الْحَقُوقُ مَعَ الْغَنَى
فَغَدًا تَوْدِيهَا مَعَ الْإِفْلَاسِ (٥٦)

٥٥ — صحيح مسلم ، كتاب الامارة ، باب من غش رعيته ولم ينصح لهم .

٥٦ — الكبائر ، للذهبي ، ص ١٢٠ .

ولما كانت التوبة من ظلم الناس تتعلق بحق آدمي ، فيضاف إلى الشروط الثلاثة الواجب توفرها في التوبة [الإقلاع عن المعصية ، والندم على فعلها ، والعزم على عدم العودة إليها] شرط رابع وهو التحلل من المظلوم ، « فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه ، وإن كان حذّ قذف ونحوه مكتة منه أو طلب عفوّه ، وإن كانت غيبة استحلّه منها » (٥٧) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

« مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عَرَضِهِ أَوْ مِنْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ » (٥٨) .

٣ — ظلم النفس : مافيه ظلم للنفس فقط كشرب الخمر والزنا ، وقد يجتمع النوعان [الثاني والثالث] ، مثل أن يأخذ الحاكم أموال الناس يزني بها ويشرب بها الخمر (٥٩) .

والعاصي ظالم لنفسه لأنه يوردها موارد الهلاك ، ويدنسها بالخيائث والسيئات . قال تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسُ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٦٠) .

وقال : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٦١) ، والعبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وهذه الذنوب — أي ذنوب النوع الثالث من الظلم — بين العباد وبين ربهم إن شاء عفا عنهم ، وإن شاء عاقبهم .

٥٧ — رياض الصالحين ، للنووي ، باب التوبة .

٥٨ — رواه البخاري ، كتاب المظالم ، باب من كانت له مظلمة عند الرجل فتحللها له هل يبين مظلمته ، فتح البخاري : ٥ / ٧٣ ، دار المعرفة .

٥٩ — الاستقامة لابن تيمية ٢ / ٢٤٦ تحقيق محمد رشاد سالم .

٦٠ — سورة يونس ، الآية : ٤٤ .

٦١ — سورة آل عمران ، الآية : ١١٧ .

وابعاً - نصر المظلوم

عَنْ أَبِي عُمَارَةَ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَبْعٍ وَنَهَانَا عَنْ سَبْعٍ ، وَذَكَرَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي أَمَرَ بِهَا الرَّسُولُ ﷺ : نَصْرُ الْمَظْلُومِ « (٦٢) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

« الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ ، كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً ، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٦٣) .

قوله : [ولا يسلمه] أي لا يتركه مع من يؤذيه بل ينصره ويدفع الظلم

عنه .

[ونصر المظلوم] الذي ورد في حديث البراء بن عازب يكون بمنع الظالم عن ظلمه ، والوقوف إلى جانب المظلوم وجوباً على من قدر على ذلك بفعله أو قوله .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا . فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ ؟ قَالَ : تَحْجُزُهُ — أَوْ تَمْتَعُهُ — مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ » (٦٤) .

أرأيت : أي أخبرني . تحجزه : أي تجعل نفسك حاجزاً له .

وأول من قال : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » جندب بن العنبر بن

٦٢ — رواه البخاري في صحيحه ، النظر فتح الباري ، باب نصر المظلوم ٥ / ٧٢ دار المعرفة .

٦٣ — رواه البخاري في صحيحه ، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه ٥ / ٧٠ ، انظر فتح الباري : ٥ / ٧٠ ، دار المعرفة .

٦٤ — رواه البخاري ، كتاب المظالم ، باب أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً .

عمرو بن تميم ، وأراد بذلك ظاهره وهو ما اعتاده من حمية الجاهلية لا مافسره
النبي ﷺ ، وفي ذلك يقول شاعرهم :

إذا أنا لم أنصر أخي وهو ظالم
على القوم لم أنصر أخي حين يظلم (٦٥)

وقال ابن حجر العسقلاني عن نصر المظلوم :

« هو فرض كفاية وهو عام في المظلومين وكذلك في الناصرين بناء على أن
فرض الكفاية مخاطب به الجميع وهو الراجع ، ويتعين أحياناً على من له القدرة
عليه وحده إذا لم يترتب على إنكاره مفسدة أشد من مفسدة المنكر فلو علم
أو غلب على ظنه أنه لا يفيد سقط الوجوب وبقي أصل الاستحباب بالشرط
المذكور ، فلو تساوت المفسدتان تخير ، وشرط الناصر أن يكون عالماً بكون
الفعل ظلماً ويقع النصر مع وقوع الظلم وهو جينئذ حقيقة وقد يقع قبل وقوعه
كمن أتقذ إنساناً من يد إنسان طالبه بمال ظلماً وهدده إن لم يبذله ، وقد يقع
بعد وهو كثير » ا هـ (٦٦) .

وشرع الله للمظلوم أن يدفع عن نفسه الظلم بطرق مختلفة منها أن يشن
حملة إعلامية ضد الظالم إلى أن يحصل على حقه ، شريطة أن يكون صادقاً
في كل ما يقوله ، وأن يكون قصده الحصول على حقه ، وليس إيذاء الظالم
وئشويه سمعته . قال تعالى :

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا
يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ، وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ،
إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ
أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ
الْأُمُورِ ﴾ (٦٧) .

٦٥ - فتح الباري ، نقله ابن حجر العسقلاني عن الفضل الصبي في كتابه الفاخر ، ٥ / ٧٢ .

٦٦ - المصدر السابق ، باب نصر المظلوم ٥ / ٧٢ .

٦٧ - سورة الشورى ، الآية : ٤٠ - ٤٣ .

قال ابن كثير رحمه الله : « وقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا عَتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ وكقوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ ﴾ الآية ، فشرع العدل وهو القصاص وندب إلى الفضل وهو العفو كقوله جل وعلا : ﴿ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي لا يضيع ذلك عند الله كما صح ذلك في الحديث ، وما زاد الله تعالى عبداً بعفو إلا عزاً ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ أي المعتدين ، وهو المبتدئ بالسيئة ، ثم قال جل وعلا : ﴿ وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَاعْلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ أي ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم . هـ (٦٨) .

وقال تعالى :

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ .

وقال النووي رحمه الله :

« اعلم أن الغيبة تباح لغرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه إلا بها ، وهو ستة أسباب :

الأول : التظلم فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه ، فيقول : ظلمني فلان بكذا ... ثم ذكر الخمسة الباقية » (٦٩) .

ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار عن أبي هريرة : « أن رجلاً أتى النبي ﷺ ، فقال : إن لي جاراً يؤذيني ، فقال له : أخرج متاعك ، فضعه على الطريق ، فأخذ الرجل متاعه ، فطرحه على الطريق ، فجعل

٦٨ — تفسير ابن كثير : ٤ / ١٦٨ ، داو إحياء التراث العربي .

٦٩ — رياض الصالحين للنووي ، باب ما يباح من الغيبة ، ص ٥٣٨ ، تحقيق الألباني .

كل من مر به قال : مالك ؟ قال : جاري يؤذيني ، فيقول : اللهم العنه ، اللهم
أخزه . قال : فقال : ارجع إلى منزلك ، وقال : لا أوديك أبداً » (٧٠) .

خامساً - نظرية شاملة

وهكذا نرى أن موقف الإسلام من الظلم يتسم بالعمق والشمولية
والواقعية ... فمن جهة نكاد لانجد آية أو حديثاً إلا وقد جاء فيهما التحذير
من سوء العاقبة مرادفاً للتحذير من الظلم . انظر إلى قوله تعالى : ﴿ ألا يظن
أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ ، وقوله :
﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ ،
وقوله : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا
وسيصلون سعيراً ﴾ .

وانظر إلى قوله ﷺ : « من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع
أرضين » ، وقوله : « من اقتطع حق امرئ مسلم يمينه فقد أوجب الله له النار
وحرم عليه الجنة » .

والمسلم العاقل المنصف يكفيه هذا التحذير ليتوب إلى الله إن كان قد
ظلم نفسه أو ظلم أحداً من عباد الله .

ومن جهة أخرى ، فالمسلم قوي لا يرضى الضعف والهوان ، عزيز لا يقبل
الخنوع والذل ، ولهذا فقد شرع الله له الدفاع عن نفسه إذا لحقه ظلم ، وإذا
مات وهو يدافع عن عرضه وماله فهو شهيد ... وإذا علم الظلمة بأن الذين
سيقتلون عليهم لن يستسلموا وسيقاومون العدوان سيفكرون طويلاً ، ولن يقدموا
على عمل إذا كانوا يعلمون أنه سوف يكلفهم خسائر فادحة .

ومن جهة ثالثة ، فالمسلمون أعضاء في جماعة واحدة تتكافأ دماؤها ،

٧٠ - رواه أبو داود ٤ / ٤٦٠ ، والبخاري في « الأدب المفرد » ١ / ٢١٦ ، وهو حديث حسن .
انظر حاشية زاد المسير ٢ / ٢٣٧ .

ويسعى بذمتها أدناها ... ولن يقبل أعضاء هذه الجماعة أن يعتدى على أخ من اخوانهم وهم صامتون لا يدافعون عنه .. لن يقبلوا لأن دينهم أمرهم بنصر المظلوم وكبح جماح الظالم ، وإذن فالمسلمون جميعاً مع المظلوم حتى يأخذ حقه ويسترد حريته .

ومن جهة رابعة ، فالقوانين الإسلامية مع المظلوم ولو كان نكرة ليس له جاه ولا سلطان ، ضد الظالم ولو كان أحد الولاة أو من كبار أهل الحل والعقد ، وإمام المسلمين مسؤول أمام الله ثم أمام رعيته عن تنفيذ هذه القوانين ، ولا يجوز أن يُقدم عليها قولاً أو عملاً ، والتاريخ يشهد بأن الناس مارأوا العدل والحق والمساواة إلا في ظل هذه القوانين .

ومن جهة خامسة ، فلقد كان أنبياء الله ورسله .. ومن سار على نهجهم من المصلحين المجددين نماذج طيبة ، وكانت هذه المعاني الرائعة تعيش في ضمائرهم ودمائهم ومشاعرهم ، وبصدقهم مع ربهم وسعيهم الحثيث تمكنوا من تحويل هذه المعاني والأفكار إلى حقيقة ملموسة تتحرك في واقع الأرض .

وهذا هو منهج الأنبياء في مقاومة الظلم والظالمين ... وهذا هو الإسلام في شموله وإحاطته بالمشكلات من كافة جوانبها ، فإذا كان هناك من يقول : ولكن واقع المسلمين اليوم خلاف ذلك !! نقول له : نحن نحتج بالإسلام على هذا الواقع ولا يجوز العكس .

الفصل الثاني

المبحث الأول :

كلمة موجزة عن سيرة شبيب
عليه السلام

المبحث الثاني :

دعوة شبيب عليه السلام

المبحث الأول

كلمة موجزة عن سيرة شعيب

كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط ، وكانوا بعدهم بمدة قرية ... وتقع مدين في ممر قوافل التجارة ، وكان هذا الموقع يعطيها أهمية كبيرة ، ويميزها عن غيرها من المدن القرية منها ، وفي حديث أبي ذر الذي رواه ابن حبان في صحيحه في ذكر الأنبياء والرسل قال : « أربعة من العرب هو وصالح وشعيب ونيك يابا ذر » (١) .

وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون الأيكة وهي شجرة من الآيك حولها غيظة ملتفة بها ، وكانوا من أسوأ الناس معاملة يسخسون المكيال والميزان ويطففون فيهما يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة من بخر الناس أشياءهم وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم ، فأمن به بعضهم ، وكفر أكثرهم حتى أحل الله بهم البأس الشديد .

وزعم بعض المفسرين كقتادة وغيره أن شعبياً عليه السلام بعث إلى أمتين : إلى قومه أهل مدين ، وإلى أصحاب الأيكة ... وعمدتهم شيثان : أحدهما أنه قال : ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب ﴾ ولم يقل أخوهم كما قال ﴿ وإلى مدين أخاهم شعبياً ﴾ ، والثاني : أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة ، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة . والجواب عن الأول أنه لم

١ — رواه ابن حبان في صحيحه . انظر : موارد الطمان إلى زوائد ابن حبان ، ص ٥٢ ح ٩٤ ، باب السؤال للفائدة ، ط دار الكتب العلمية — بيروت .

يذكر الأخوة بعد قوله : ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين ﴾ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة ، فلا يناسب ذكر الأخوة ههنا ، ولما نسبهم إلى القبيلة شاع ذكر بأنه أخوهم ، وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة ، وأما احتجاجهم بيوم الظلة فإن كان دليلاً بمجردده على أن هؤلاء أمة أخرى فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلاً على أنهما أمتان أخريان وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئاً من هذا الشأن ... وتتبع ابن كثير رحمه الله الأحاديث التي استدل بها القائلون بأن أصحاب الأيكة غير قوم مدين فبين ضعفها وأنه لا يجوز الاحتجاج بها .

وقد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان فدل على أنهم أمة واحدة أهلكوا بأنواع من العذاب ... وقال ابن حجر العسقلاني بعد أن فُتد أقوال المخالفين وبيّن بطلانها : « والجمهور على أن أصحاب مدين هم أصحاب الأيكة »

هل شعيب هو صهر موسى عليهما السلام ؟!!:

ساق ابن جرير الطبري أقوال الذين يقولون بأن شعيباً هو صهر موسى عليهما السلام ... ثم ساق أقوال الذين يقولون بأنه ليس شعيباً نبي الله .. ثم قال معقباً :

« وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر ، ولا خبر بذلك تجب حجته فلا قول في ذلك أولى بالصواب مما قاله الله جل ثناؤه « اه ، والله سبحانه وتعالى قال : ﴿ وأبونا شيخ كبير ﴾ . »

وقال ابن كثير :

« وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو على أقوال . أحدهما : أنه شعيب النبي عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين ، وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء . قال : وقال آخرون : بل كان ابن أخي شعيب ، وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب ، قال : وقال آخرون : كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة ، لأنه قال لقومه : ﴿ وماقوم لوط منكم بعيد ﴾ وقد كان هلاك

قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن ، وقد عُلِمَ أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمئة سنة كما ذكره غير واحد قال : وما قيل : إن شعبياً عاش مدة طويلة إنما هو — والله أعلم — احتراز من هذا الإشكال ، ثم من المقوّي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن هاهنا ، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى ، لم يصح إسناده .

وقد ورد اسم شعيب عليه السلام في القرآن الكريم عشر مرات ، أما الآيات التي ورد فيها الحديث عن دعوته وصراعه مع قومه :

- سورة الأعراف : ٨٥ — ٩٣ .
- سورة هود : ٨٤ — ٩٥ .
- سورة الشعراء : ١٧٦ — ١٩٠ .
- سورة العنكبوت : ٣٦ ، ٣٧ . (٢)

٢ — اعتمدت فيما كتبه عن سيرة شعيب عليه السلام على المصادر التالية :
البداية والنهاية : ١ / ١٨٤ — ٢٤٤ ، وتفسير ابن كثير : ٣ / ٣٨٤ ، البابي الحلبي ، فتح الباري — الشرح — ٦ / ٣٢٤ ، البابي الحلبي ، تفسير الطبري ، سورة القصص من الآية ٢٢ — ٢٨ ، ج ٢٠ ، ص ٤٠ .

المبحث الثاني

دعوة شعيب عليه السلام

- أولاً — دعاهم إلى وحدانية الله تعالى .
- ثانياً — جاءهم ببينة .
- ثالثاً — كان عليه السلام قدوة حسنة .
- رابعاً — واجه شعيب قومه بانحرافاتهم .

أولاً - دعاهم إله وحدانية الله تعالى

دعا شعيب عليه السلام قومه إلى وحدانية الله تعالى ، وعدم الإشراف به .
قال تعالى :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ
قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ
أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

وقال :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا . قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ
وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ، وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ (٤) .

وعندما كان قومه يقابلون دعوته بالتكذيب والاستخفاف والسخرية ، كان
عليه السلام يخوفهم من بأس ربهم ، ويأمرهم بتقواه وطاعته . قال تعالى :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ .
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ (٥) .

وقال تعالى :

﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (٦) .
وقال : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ ﴾ (٧) .

٣ — سورة الأعراف ، الآية : ٨٥ .

٤ — سورة هود ، الآية : ٨٤ .

٥ — سورة الشعراء ، الآيات من ١٧٦ إلى ١٧٩ .

٦ — سورة هود ، الآية : ٩٠ .

٧ — سورة الشعراء ، الآية : ١٨٤ .

وقال : ﴿ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٨) .

لقد بدأ شعيب بما بدأ به نوح ، وهو ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ﴿ يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ ، وربط مشكلات عصره بالعبودية : ﴿ يا قوم : اعبدوا الله مالك من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴾ ، ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ ، ففي هذه الآيات وغيرها تأكيد من الله سبحانه وتعالى على أن الذين يعبدون الله حق العبادة لا ينقصون المكيال والميزان ، ولا يبخسون الناس أشياءهم ، ولا يفسدون في الأرض ، وعن غير هذا الطريق لا يكون هناك إصلاح ولا عدل ولا مساواة بين الناس ... ومثل هذه المسألة ينكرها العلمانيون ، ومن سار على نهجهم ودعا بدعوتهم من المنحرفين الذين ابتليت بهم أمتنا في هذا العصر الذي يعج بالفتن والمصائب ، ويتساءل هؤلاء العلمانيون باستغراب : مالنا وشعيب ؟! ، وما علاقة الصلاة والصيام وعبادة الله بغلاء الأسعار ، والاحتكار ، والبطالة ، والرشوة ؟!

إن الذين حُرِّمُوا نعمة الإيمان يفكرون بمثل هذه الأفكار ، ويرون بأنهم قادرون على تحقيق العدالة الاجتماعية بما يرسمون من قوانين ومبادئ لاعلاقة لها بالإيمان والإسلام ، وربما نجح بعضهم في حل مشكلة غلاء الأسعار حيناً من الزمن ، ولكن هذا النجاح يكون على حساب أمور أخرى تعد أشد خطراً وأكثر ظلماً من غلاء الأسعار كالاستبداد والبطش والإرهاب .. ومن جهة أخرى فقد تحدثت في الفصل الأول [صور من الظلم في القديم والحديث] عن فشل مثل هذه الأنظمة والأحزاب والمبادئ ، ولم يعد هذا الفشل سراً من الأسرار . لقد افتضح أمرهم ، وهتكت أستارهم ، وظهر زيفهم ، وانفض عنهم ألصق الناس بهم .

وعلى نقيض ذلك فلقد نجح شعيب ومن سبقه أو جاء بعده من أنبياء

الله أيما نجاح لأنهم انطلقوا من الدعوة إلى وحدانية الله تعالى ، ومن أخص معاني التوحيد : الانقياد المطلق لأوامر الله تعالى . قال جلّ من قائل : ﴿ وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ (٩) . وقال : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ (١٠) . وقال : ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ (١١) . وتفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أي ينقاد ، ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي موحد .

« ولفظ الإسلام : [والإسلام دين أنبياء الله جميعاً] يتضمن الاستسلام والانقياد ، ويتضمن الإخلاص من قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ، وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ ﴾ [الزمر : ٢٩] فلا بد في الإسلام من الاستسلام لله وحده ، وترك الاستسلام لما سواه ، وهذا حقيقة قولنا : [لا إله إلا الله] فمن استسلم لله ولغيره فهو مشرك ، والله لا يغفر أن يشرك به ، ومن لم يستسلم فهو مستكبر عن عبادته ، وقد قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبِّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] » (١٢) .

والله جلّ وعلا الذي أمر المسلمين بالصلاة والصوم ، والحج ، والزكاة ، هو الذي أمرهم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعدم تطفيف الكيل والميزان ، وحب الله ورسوله ، وخشيته والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه وأمثال ذلك من العبادة التي عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله : « العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة » (١٣) . وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنَسْكَي

٩ — سورة الزمر ، الآية : ٥٤ .

١٠ — سورة النساء ، الآية : ١٢٥ .

١١ — سورة لقمان ، الآية : ٢٢ .

١٢ — اقتضاء الصراط المستقيم ، ابن تيمية : ٢ / ٨٣٦ . تحقيق الدكتور ناصر العقل .

١٣ — انظر كتاب العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية .

ومحيائي ومماتي لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿١٤﴾ .

ولا يعد مسلماً من جحد معلوماً من الدين بالضرورة ، أو زعم أنه لاعلاقة لدين الإسلام بالسياسة والحكم ، أو بإباحة الربا وما إلى ذلك . قال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ (١٥) .

إن الذين آمنوا بالله ورسوله ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه يعدلون في أقوالهم وأفعالهم ، ولا يبخسون الناس أشياءهم ، ولا يظلمون أحداً من الناس ، أو حتى من البهائم التي يملكونها ، ويخشون الله أشد الخشية لأنه يعلم سرهم ونجواهم . قال تعالى :

﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١٦) . ويخافون بطش الله . قال تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ (١٧) . وقال : ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١٨) .

وقد لا يكون للقانون ورجال القانون سلطان على هؤلاء المؤمنين لأن المظلوم لا يملك دليلاً ضدهم ... ولكن عقوبة الدنيا لاقيمة لها أمام ما أعده العلي القدير من عقوبات زاجرة ينتقم بها من الظالمين المتجبرين ... ولهذا يسارعون إلى رد الحقوق لأصحابها ، وإلى إرضائهم ولو طلبوا أضعاف حقهم ، ويتوبون

١٤ — سورة الأنعام ، الآية : ١٦٢ .

١٥ — سورة النساء ، الآية : ٦٥ .

١٦ — سورة المجادلة ، الآية : ٧ .

١٧ — سورة البروج ، الآية : ١٢ .

١٨ — سورة هود ، الآية : ١٠٢ .

إلى الله جل وعلا ويرجون غفرانه ورحمته .
ومن هنا نعلم لماذا بدأ شعيب وجميع أنبياء الله ورسله بالدعوة إلى
وحدانية الله تعالت أسماؤه وصفاته . قال تعالى :

﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا
الطاغوت ﴾ (١٩) . وقال : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا
نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (٢٠) .

ومن هنا ندرك لماذا أمضى شعيب عليه السلام سني عمره في النبوة يربى
جيلاً شعاره الانقياد المطلق والاذعان التام لأوامر الله ونواهيه .. وهذا سر نجاح
أنبياء الله ورسله ومن سار على نهجهم .

ثانياً - جاءهم ببينة

قال تعالى :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره
قد جاءكم بينة من ربكم فآوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس
أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلك خير لكم إن كنتم
مؤمنين ﴾ (٢١) .

والشاهد في هذه الآية قوله تعالى : ﴿ قد جاءكم بينة من ربكم ﴾ أي
قد جاءكم « معجزة شاهدة بصحة نبوتي أوجبت عليكم الإيمان بي والأخذ
بما أمركم به والانتفاء عما أنهاكم عنه » (٢٢) ، ولم يبين لنا جل وعلا نوع
هذه المعجزة ، وحسبنا أنها معجزة ، وليست أدلة وبراهين عقلية كما زعم بعض
المفسرين من أهل الاعتزال أو من دعاة المدرسة الإصلاحية في هذا العصر الذين

١٩ — سورة النحل ، الآية : ٣٦ .

٢٠ — سورة الأنبياء ، الآية : ٢٥ .

٢١ — سورة الأعراف ، الآية : ٨٥ .

٢٢ — انظر مقاله صاحب الكشف في تفسير هذه الآية .

أشربوا حب الحضارة الغربية .. ودليلنا على أنها معجزة مارواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « مامن الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات مأمثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة » (٢٣) .

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرح هذا الحديث : « [مامن الأنبياء نبي إلا أُعطي] هذا دال على أن النبي لا بد له من معجزة تقتضي إيمان من شاهدها بصدقه ولا يضره من أصر على المعاندة . [من الآيات] أي المعجزات الخوارق .

[مأمثله آمن عليه البشر] والمعنى أن كل نبي أُعطي آية أو أكثر من شأن من يشاهدها من البشر أن يؤمن به لأجلها ، والنكته في التعبير بها [وعليه] تضمنها معنى الغلبة أي يؤمن بذلك مغلوباً عليه بحيث لا يستطيع دفعه عن نفسه لكن قد يجحد فيعاند كما قال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً ﴾ . [وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي] أي أن معجزتي التي تحدث بها الوحي الذي أنزل علي وهو القرآن لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح ، وليس المراد حصر معجزاته فيه ، ولا أنه لم يؤت من المعجزات ما أوتي من تقدمه بل المراد أنه المعجزة العظمى التي اختص بها دون غيره لأن كل نبي أُعطي معجزة خاصة به لم يعطها بعينه غيره تحدى بها قومه ، وكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه .

[فأرجوا أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة] لأن معجزات الأنبياء انقضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها ، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه » (٢٥) .

٢٣ — فتح الباري ، الحلبي ، ج ١٧ ، ص ٦ .

٢٤ — سورة النمل ، الآية : ١٤ .

٢٥ — انظر فتح الباري ، الحلبي ، ج ١٠ ، ص ٣٨٠ .

ثالثاً - كان عليه السلام قدوة حسنة

كان شعيب عليه السلام قدوة حسنة في سمو خلقه ، ورجاحة عقله ، وعفة نفسه ، وعلو همته ، وصفاء سريرته ، ورباطة جأشه ، فبعد أن دعا قومه إلى وحدانية الله تعالى ، وإلى العدل والمساواة والرحمة قال بكل صدق وثقة :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ، وَمَأْرِيذُ أَنْ أَخَالَفَكُمُ إِلَى مَا أَنْتَهَاكُمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَأْتُوْنِي بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٢٦) .

قوله : ﴿ وَمَأْرِيذُ أَنْ أَخَالَفَكُمُ إِلَى مَا أَنْتَهَاكُمُ عَنْهُ ﴾ .. كان لسان حاله يقول : يا قوم : أنتم تعرفونني حق المعرفة ، لقد ولدت وترعرعت بينكم ، وأنتم أهل قريتي وأقربائي وجيرانني ... وتعلمون بأنني لم أكن في يوم من الأيام مفسداً في الأرض ، ولا صاداً عن سبيل الله ، وقد رزقني الله منه رزقاً حسناً ، فما طففت الكيل والميزان ، ولا ظلمت صاحب حق ... وأعمالي ترجمة أمينة لأقوالي ، وليس في خلقي اضطراب ولا تناقض أو انفصام ، وقصاري القول فأنا أول المتمسكين بكل ما أمركم به ، ولم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه .

وقوله : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ : إنني لا أبغي من وراء هذه الدعوة مالا ولا جاهاً أو مغنماً ، وكل الذي أريده إصلاح أمور دينكم ودنياكم ... وأنا أعلم جيداً بأن التوفيق والفلاح من الله وحده ، ولهذا فقد توكلت عليه في جميع أموري ، وإليه وحده أرجع في كل مانابني ، وأنا لا أرجو منكم أجراً ، ولا أخاف منكم ضرراً .

وبعد هذا التحدي من شعيب لم يجرؤ أحد من قومه على اتهمه بنطيف الكيل والميزان أو بظلم الناس أو أن أعماله تخالف أقواله ... لم يتهموا نبي

الله بشيء من هذه الاتهامات ، لكنهم خافوا من إعجاب الناس به ، فراحوا يتهمون به باتهامات أخرى ، فإذا جاءهم بمعجزة ﴿ قالوا إنما أنت من المسحّرين ﴾ (٢٧) ، وإذا أخبرهم بأن الله قد أرسله إليهم قالوا : ﴿ وما أنت إلا بشر مثنا وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ (٢٨) ... وهذه كلها أعذار واهية تعبر عن هزيمتهم أمام الحق الذي صدع به شعيب عليه السلام ، وتُصورُ حسدهم لبشر منهم أكرمهم الله بالرسالة ... وهم بهذا يرددون أقوال سلفهم من الكافرين الذين تصدوا لإبراهيم وصالح ونوح عليهم السلام .

والله سبحانه وتعالى أخبرنا في محكم كتابه أن شعباً وغيره من أنبياء الله كانوا من أحسن الناس أخلاقاً وأكثرهم استقامة . قال تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ (٢٩) . وقال : ﴿ وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ (٣٠) .

وعندما كان الملائكة من قوم شعيب يرددون عليه بانفعال وحقد وتشنج وجدة ، كان يجيبهم بكل هدوء وتجرد ومحبة . انظر إلى قوله تعالى : ﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصبىكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ (٣١) . وقوله : ﴿ إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ (٣٢) .

ولأنه عليه السلام كان قدوة حسنة أعجب به وبدعوته نفر من قومه وأخذ عددهم يزداد يوماً بعد آخر ... وتعد التربية بالقدوة من أفضل أنواع التربية وأشملها وأكثرها عمقاً ، يقول الأستاذ محمد قطب :

« من السهل تأليف كتاب في التربية ! ومن السهل تخيل منهج ، وإن

٢٧ — سورة الشعراء ، الآية : ١٨٥ .

٢٨ — سورة الشعراء ، الآية : ١٨٦ .

٢٩ — سورة الأنعام ، الآية : ١٢٤ .

٣٠ — سورة ص ، الآية : ٤٧ .

٣١ — سورة هود ، الآية : ٨٩ .

٣٢ — سورة هود ، الآية : ٨٤ .

كان في حاجة إلى إحاطة وبراعة وشمول .. ولكن هذا المنهج يظل حبراً على ورق .. يظل معلقاً في الفضاء .. مالم يتحول إلى حقيقة واقعة تتحرك في واقع الأرض .. مالم يتحول إلى بشر يترجم بسلوكه وتصرفاته ومشاعره وأفكاره مبادئ المنهج ومعانيه . عندئذ فقط يتحول المنهج إلى حقيقة ، ويتحول إلى حركة ويتحول إلى تاريخ .

ولقد علم الله سبحانه — وهو يضع ذلك المنهج — أنه لا بد من ذلك البشر . لا بد من قلب إنسان يحمل المنهج ويحوّله إلى حقيقة ، لكي يعرف الناس أنه حق .. ثم يتبعوه .

لا بد من قدوة ..

لذلك بعث الله محمداً ﷺ ليكون قدوة للناس : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ (٣٣) .

ووضع في شخصه ﷺ الصورة الكاملة للمنهج الإسلامي .. الصورة الحية الخالدة على مدار التاريخ . سئلت عائشة رضي الله عنها ، عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت : كان خلقه القرآن ! (٣٤)

إجابة دقيقة عجيبة مختصرة شاملة .. كان خلقه القرآن ! كان الترجمة الحية لروح القرآن وحقائقه وتوجيهاته .. ومن ثم كان — كالقرآن — قوة كونية عظمى . قوة من صنع الله ، يتكامل فيها الناموس ، وتتكامل فيها القوى ، وتلتقي السماء بالأرض أروع لقاء شهدته الكون .

.. وكان قدوة للناس في واقع الأرض .. يرونه — وهو بشر منهم — تتمثل فيه هذه الصفات كلها وهذه الطاقات ، فيصدقون هذه المبادئ الحية لأنهم يرونها رأي العين ولا يقرأونها في كتاب ! ويرونها في بشر ، فتتحرك لها نفوسهم ، وتهفو لها مشاعرهم . ويحاولون أن يقبسوا قبسات من الرسول

٣٣ — سورة الأحزاب ، الآية : ٢١ .

٣٤ — قطعة من حديث طويل رواه الإمام أحمد في مسنده : ٦ / ٥١ ، ٥٢ ، ورواه مسلم : ١ / ٥١٢ بنحو حديث أحمد ، عن حاشية زاد المسير ، ٨ / ٣٢٩ .

ﷺ .. كل بقدر مايطبق أن يقبس ، وكل بقدر مايحتمل كيانه الصعود .
لايأسون ولا ينصرفون .. ولا يدعونه حلاً مترفاً لذيذاً يطوف بالأفهام .. لأنهم
يرونه واقعاً يتحرك في واقع الأرض . ويرنه سلوكاً عملياً لا أمانى في الخيال .
لذلك كان رسول الله ﷺ أكبر قدوة للبشر في تاريخها الطويل . وكان مربياً
وهادياً بسلوكه الشخصي قبل أن يكون بالكلام الذي ينطق به ، سواء في ذلك
القرآن المنزل وحديث الرسول ﷺ .

.. إن شخصية الرسول ﷺ ليست آية عصر ولا جيل ولا أمة ولا مذهب
ولا بيئة ... إنها آية كونية ... للناس كافة وللأجيال كافة : ﴿ وما أرسلناك
إلا رحمة للعالمين ﴾ (٣٥) . ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً
ونذيراً ﴾ (٣٦) .

والإسلام يرى أن القدوة أعظم وسائل التربية ، فيقيم تربيته الدائمة على
هذا الأساس ... لابد للطفل من قدوة في أسرته ووالديه لكي يتشرب منذ طفولته
المبادئ الإسلامية وينهج على نهجها الرفيع . ولابد للناس من قدوة في
مجتمعهم تطبعهم بطابع الإسلام وتقاليده النظيفة لكي يحملوا الأمانة لمن يربونهم
من الأجيال . ولابد للمجتمع من قدوة في قائدهم أو زعيمهم أو حاكمهم ،
تتحقق في شخصه المبادئ ، وينسج على منواله المحكومون ... والقدوة
للجميع هي شخصية الرسول ﷺ التي تتمثل فيها كل مبادئ الإسلام وقيمه
وتعاليمه « ١ هـ (٣٧) .

ومن المفيد أن نسوق بعض الأدلة والشواهد التي تؤكد أهمية التربية
بالقدوة ، ونبدأ بسيرة رسول الله وأهل بيته ، وأصحابه ﷺ .

لقد فتح ﷺ الأمصار ، ودانت له الجزيرة العربية كلها ، وأصبح سيداً

٣٥ — سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٧ .

٣٦ — سورة سبأ ، الآية : ٢٨ .

٣٧ — منهج التربية الإسلامية ، للأستاذ محمد قطب ، من وسائل التربية ، التربية بالقدوة ، ٢١٩ — ٢٢٧
وقد اخترت فقرات متفرقة .

لدولة مترامية الأطراف واسعة الأرجاء ، وغنم أموالاً وأنعاماً كثيرة ، فهل تغير نمط حياته ، وهل وسع على نفسه وأهله ؟!

عن أنس رضي الله عنه قال : « لَمْ يَأْكُلِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خِوَانٍ حَتَّى مَاتَ ، وَمَا أَكَلَ خُبْزاً مُرَقَّقاً حَتَّى مَاتَ » (٣٨) .

وعن عائشة قالت : « مَا شَبِعَ آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ مِنْ طَعَامِ بُرٍّ ثَلَاثَ لَيَالٍ تَبَاعاً حَتَّى قُبِضَ » (٣٩) .

وعنها — أي عن عائشة رضي الله عنها — قالت : « كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَدَمٍ وَخَشْوُهُ لَيْفٌ » (٤٠) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « تُوَفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرَهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ فِي ثَلَاثِينَ صَاعاً مِنْ شَعِيرٍ » (٤١) .

وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول : « وَاللَّهِ يَا ابْنَ أُخْتِي إِنْ كُنَّا نَنْظُرُ إِلَى الْهِلَالِ ثُمَّ الْهِلَالِ : ثَلَاثَةُ أَهْلَةٍ فِي شَهْرَيْنِ وَمَا أُوقِدَ فِي آيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارٌ . قُلْتُ : بِإِخَالَةٍ فَمَا كَانَ يُعِيشُكُمْ ؟ قَالَتْ : الْأَسْوَدَانِ الثَّمَرُ وَالْمَاءُ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَابِيعُ ، وَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهَا فَيَسْقِينَا » (٤٢) .

قال ابن بطال : « تركه عليه الصلاة والسلام الأكل على الخوان وأكل

٣٨ — رواه البخاري في صحيحه . [خوان] هو يوضع عليه الطعام عند الأكل . [مرققاً] : الترقيق : التليين ، وقال ابن الأثير وهو السמיד وما يصنع به من كعك ونحوه . فتح الباري : المجلد الرابع عشر ، ص ٥٨ ، الحلبي .

٣٩ — رواه البخاري في صحيحه ، فتح الباري ، المجلد الرابع عشر ، ص ٧٠ ، الحلبي .

٤٠ — رواه البخاري في صحيحه ، فتح الباري : ١٤ / ٧٢ ، والأدم : الجلد .

٤١ — متفق عليه . انظر رياض الصالحين للإمام النووي ، تحقيق الألباني ، باب فضل الجوع وعشونة العيش ، ص ٢٢٩ . البخاري : كتاب الجهاد ، باب ما قيل في درع النبي ﷺ ، الفتح ٦ / ٩٩ ، ح ٢٩١٦ ، السلفية ، ولم أجده في مسلم .

٤٢ — متفق عليه ، انظر فتح الباري ١٤ / ٧٢ ، ورياض الصالحين ، ص ٢٢٣ ، البخاري ، كتاب الهبة ، الفتح ٥ / ١٩٧ ، ح ٢٥٦٧ ، السلفية ، ومسلم ، كتاب الزهد ، ح ٢٨ / ٤ / ٢٢٨٣ ، عبد الباقي . ومنايع : جمع منيحة وهي الشاة أو الناقة يعطيها صاحبها رجلاً يشرب لبنها ثم يردّها إذا انقطع لبنها [عن المصباح] .

المرقق إنما هو لدفع طيبات الدنيا اختياراً لطيبات الحياة الدائمة ، والمال إنما يرغب فيه ليستعان به على الآخرة ، فلم يحتج النبي ﷺ إلى المال من هذا الوجه . وحاصله أن الخبر لا يدل على تفضيل الفقر على الغنى ، بل يدل على فضل القناعة والكفاف وعدم التبسط في ملاذ الدنيا » (٤٣) .

« وقد ثبت في الصحيحين أنه كان إذا جاءه ما فتح الله عليه من خير وغيرها من تمر وغيره يدخر قوت أهله سنة ، ثم يجعل ما بقي عنده عدة في سبيل الله تعالى ، ثم كان مع ذلك إذا طرأ عليه طارئ ، أو نزل به ضيف يشير على أهله بإيثارهم فربما أدى ذلك إلى نفاد ما عندهم أو معظمه » (٤٤) .

هكذا كان يعيش رسول الله ﷺ ، وكان يحكم دولة واسعة الأرجاء ، ولا يرد أحد له طلباً ، ولو شاء لجعل الله له بطحاء مكة ذهباً ، لكنه ﷺ كان يزهد في طيبات الدنيا ونعيمها ... وهكذا كان يعيش أصحابه وآل بيته :

روى البخاري في صحيحه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن فاطمة عليها السلام شكّت ما تلقى من أثر الرّحا ، فأتى النبي ﷺ سبي فأنطلقت فلم تجده فوجدت عائشة فأخبرتها . فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبت لأقوم ، فقال : على مكانكما ، ففعد بيننا ، حتى وجدت برد قدميه على صدري ، وقال : « ألا أعلمكما خيراً ممّا سألتماني ؟ إذا أخذتما مضاجعكما تكبران أربعاً وثلاثين ، وتُسبحان ثلاثاً وثلاثين ، وتُحمدان ثلاثة وثلاثين ، فهو خير لكم من خادم » (٤٥) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خرج رسول الله ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فقال : « ما أخرجكما من بيوتكما

٤٣ — فتح الباري : ١٤ / ٥٨ .

٤٤ — فتح الباري : ١٤ / ٥٩ ، والكلام لابن حجر العسقلاني .

٤٥ — قال الحافظ ابن حجر : اختار النبي ﷺ لابنته ما اختاره لنفسه من إيثار الآخرة على أمر الدنيا ، ووسع على أهل الصفة بما قدم عليه ورأى لأهله الصبر [عن فتح الباري : ١٤ / ٧٤] .

هَذِهِ السَّاعَةَ ؟ » قَالَا : الْجُوعُ يَارَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : « وَأَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ
لَأُخْرِجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا قَوْمًا » فَقَامَا مَعَهُ فَأَتَى رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ
فِي بَيْتِهِ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ : مَرْحَبًا وَأَهْلًا ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :
« أَيْنَ فُلَانُ ؟ » قَالَتْ : ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا الْمَاءَ إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَنَظَرَ إِلَى
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَاحَبِيهِ ثُمَّ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ مَا أَخَذَ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي ،
فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِدْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطْبٌ ، فَقَالَ : كُلُوا وَأَخَذَ الْمُدِّيَّةَ ، فَقَالَ
لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِيَّاكَ وَالْحُلُوبَ » فَذَبَحَ لَهُمْ فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ
الْعِدْقِ وَشَرِبُوا . فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُّوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمَا : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَسْأَلَنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَخْرَجَكُم
مِنْ يُؤْتِيَكُمُ الْجُوعُ ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ » (٤٦) .
[يَسْتَعْذِبُ] : أَيِ يَطْلُبُ الْمَاءَ الْعَذْبَ وَهُوَ الطَّيِّبُ .

[الْعِدْقُ] : بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَإِسْكَانِ الذَّالِ الْمَعْجَمَةُ وَهُوَ الْكِبَاسَةُ هِيَ الْغَصَنُ .
[الْمُدِّيَّةُ] : بِضَمِّ الْمِيمِ وَكسرها . هِيَ السَّكِينُ .
[الْحُلُوبُ] : ذَاتُ اللَّبَنِ .

وَالسُّؤَالُ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ سُؤَالٌ تَعْدِيدٌ لَا سُؤَالُ تَوْبِيخٍ وَتَعْذِيبٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .
وَهَذَا الْأَنْصَارِيُّ الَّذِي أُتُوهُ هُوَ أَبُو الْهَيْثَمِ بْنِ التَّيْهَانِ ، كَذَا جَاءَ مَبِينًا فِي رِوَايَةِ
الترمذي وغيره (٤٧) .

تَأَثَّرَ الشَّاعِرُ حَافِظُ إِبْرَاهِيمَ بِسِيرَةِ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ أَشَدَّ التَّأَثُّرِ ، وَوَقَفَ
مَشْدُوهُأَ أَمَامَ الْإِنْجَازَاتِ الرَّائِعَةِ الَّتِي حَقَّقَهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ خِلَالِ سِنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ ،
وَأَهَمُّ هَذِهِ الْإِنْجَازَاتِ أَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ قَدْوَةً حَسَنَةً لِرَعِيَّتِهِ : فِي عِبَادَتِهِ ،
وِطْعَامِهِ ، وَلِبَاسِهِ ، وَأَخْلَاقِهِ ، وَفِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَلِهَذَا فَقَدْ مَلَأَ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَرَحْمَةً وَمَسَاوَاةً ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا فِي نَظَرِهِ سَوَاسِيَةً
كَأَنَّهُمْ أَسْنَانُ الْمَشْطِ ... وَبَسَبِبَ هَذَا التَّأَثُّرُ وَأَمَامَ هَذَا الْإِعْجَابِ فَاضَتْ قَرِيحَةٌ

٤٦ — رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْأَشْرِبَةِ ، ح ١٤٠ / ٣ / ١٦٠٩ ، ط عبد الباقي .

٤٧ — رِيَاضُ الصَّالِحِينَ ، النَّوَوِيُّ ، ص ٢٢٥ .

الشاعر بملحمة تعد من عيون الشعر العربي ، ونحن نقتطف منها هذه الأبيات :

إِنْ جَاعَ فِي شِدَّةٍ قَوْمٌ شَرِكْتُهُمْ
فِي الْجُوعِ أَوْ تَنْجَلِي عَنْهَا غَوَاشِيهَا (٤٨)
جوع الخليفة والدنيا بقبضته
فِي الزهد منزلة سبحانه موليتها
فمن يباري [أبا حفص] وسيرته
أَوْ مِنْ يَحَاوِلُ لِلْفَارُوقِ تَشْبِيهَا
يَوْمَ اشْتَهَتْ زَوْجَهُ الْحَلَوَى فَقَالَ لَهَا
مِنْ أَيْنَ لِي ثَمَنُ الْحَلَوَى فَأَشْرِيهَا
لَا تَمْتَطِي شَهَوَاتِ النَّفْسِ جَامِحَةً
فَكِسْرَةُ الْخُبْزِ عَنْ حَلَوَاكِ تَجْزِيهَا
وَهَلْ يَفِي بَيْتُ مَالِ الْمُسْلِمِينَ بِمَا
تُوجِي إِلَيْكَ إِذَا طَاوَعْتَ مُوجِيهَا

وعن قصته رضي الله عنه مع رسول كسرى قال الشاعر :

وَرَاعَ صَاحِبَ كِسْرَى أَنْ رَأَى عُمَرَاً
بَيْنَ الرَّعِيَّةِ عَطَلاً (٤٩) وَهُوَ رَاعِيهَا
وَعَهْدُهُ بِمُلُوكِ الْفُرْسِ أَنَّ لَهَا
سُوراً مِنَ الْجُنْدِ وَالْأَحْرَاسِ يَحْمِيهَا
رَأَاهُ مُسْتَعْرِقاً فِي ثَوْبِهِ فَرَأَى
فِيهِ الْجَلَالََةَ فِي أَسْمَى مَعَانِيهَا

٤٨ — أي مايفشاهم ويشملهم من الشدة والقحط ، الواحدة غاشية ، ويشير الشاعر إلى أن الفاروق رضي الله عنه كان يجوع مع رعيته إن جاعت في عام الرمادة .

٤٩ — عطلاً [بالضم] ، أي متجرداً من مظاهر الأبهة .

فَوْقَ الثَّرَى تَحْتَ ظِلِّ الدُّوْحِ (٥٠) مُشْتَمِلًا
بُرْدَةً كَادَ طُولُ الْعَهْدِ يُبْلِيهَا
فَهَانَ فِي غَيْنِهِ مَا كَانَ يُكْبِرُهُ
مِنَ الْأَكَاسِيرِ وَالذَّنِيَا بِأَيْدِيهَا
وَقَالَ قَوْلَهُ حَقٌّ أَصْبَحَتْ مَثَلًا
وَأَصْبَحَ الْجَيْلُ بَعْدَ الْجَيْلِ يَرْوِيهَا
أَمِنْتُ لَمَّا أَقَمْتُ الْعَدْلَ بَيْنَهُمْ
فَنِمْتُ نَوْمَ قَرِيرٍ الْعَيْنِ هَانِيهَا

وغني عن البيان أن شاعرنا كان يشيد في ملحمة بالإسلام العظيم الذي
صنع شخصية عمر بن الخطاب ، كما صنع نماذج أخرى من الحكام
والمنحكومين على مر العصور والأزمان ، ويشير حافظ إبراهيم في بداية قصيدته
إلى شدة عمر على الإسلام والمسلمين قبل إسلامه فيقول :

قَدْ كُنْتُ أُغْدِي أَعَادِيهَا فَصِرتَ لَهَا
بِنِعْمَةِ اللَّهِ حِصْنًا مِنْ أَعَادِيهَا (٥١)

أمر آخر ، فبعض ما ذكره الشاعر عن تقشف أمير المؤمنين عمر بن
الخطاب وزهده قد يكون ضعيفاً ، ولكن في كتب الحديث روايات صحيحة
كثيرة تؤكد أن الفاروق رضي الله عنه كان زاهداً متقشفاً يرضى بالقليل ، ويعرض
عن شهوات الدنيا ونعيمها ، كما كان قدوة حسنة لرعيته ولولاته في كل أمر
من أمور دينهم ودنياهم .

لا شيء على الإطلاق يعدل التربية بالقدوة التي يكون منطلقها وهدفها
الخوف من الله والإذعان له ، والاعتقاد الجازم بأنه جلٌ وعلا يعلم خائنة الأعين
وماتخفي الصدور .

٥٠ - الدوح : جمع دوحة ، وهي الشجرة العظيمة . واشتمل الرجل بشوبه : تلفف به ، وأداره على
جسده .

٥١ - انظر ديوان حافظ إبراهيم ، دار العودة ، بيروت ، ص ٧٧ - ٩٤ .

— في ظل هذه التربية الرائدة بالقدوة جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال له : [إني زنيت] . فأعرض عنه ﷺ ، فلما شهد على نفسه أربع شهادات ، سأله ﷺ : « أبك جنون » ؟ قال : لا . قال : « فهل أحصنت » ؟ قال : نعم ، فقال النبي ﷺ : « اذهبوا فارجموه » !! (٥٢) .

يا الله أية تربية هذه التربية الرائعة الفريدة ... رجل تزل قدمه فيزني ويبقى الأمر سرّاً من الأسرار ، وقد يعيش بقية عمره ويقضي نحبّه ويموت هذا السر معه دون أن يعلم به أقرب الناس إليه .. ندم هذا الرجل على ما فعل ، وخشي من الفضيحة الكبرى يوم الحشر والندامة ، وجاء إلى رسول الله ﷺ يطلب منه أن يطهره من ذنبه ويقينم الحد عليه ، وهو يعلم أنه سوف يرحم بالحجارة حتى يموت ، وأن أهل المدينة سيشهدون هذا المنظر وسوف يفتضح أمره بينهم ويشاركون في رجمه ... ولكنه رحمه الله كان يعلم بأن الله قد رآه عندما زنى وهمه الوحيد أن ينجو من عذابه ونقمته .

— وفي ظل هذه التربية الرائدة بالقدوة ، كانت فتاة من عامة المسلمين تقول لأُمّها التي كانت تأمرها بغش الحليب :
يأماه : إن كان أمير المؤمنين لا يرانا ، فرب أمير المؤمنين يرانا !! .

— وفي ظل هذه التربية الرائدة بالقدوة كان عمر بن عبد العزيز ينفق كل يوم درهمين ، وقال عندما قام إليه ناس فأخذوا بعضديه وذهبوا به إلى المنبر :
« أيها الناس إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي مني فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختراروا لأنفسكم ! » فصاح الناس صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا

٥٢ — رواه الشيخان ، البخاري في كتاب الطلاق باب الطلاق في الأغلاق ، الفتح ٩ / ٣٨٨ ، ج ٥٢٧٠ ، ط السلفية ، ومسلم في كتاب الحدود ح ١٦ / ١٣١٨ ، ط عبد الباقي ، ورواه أبو داود والترمذي والنسائي .

بك ، فل أمرنا باليمن والبركات (٥٣) .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم

إذا جمعنا يا جريـر المجامع (٥٤)

أولئك أنبيأؤنا وعظماء أمتنا من العلماء المجددين ، فأين مثل هذه النماذج عند الاشتراكيين وأدعياء العدالة والمساواة من زعماء الأحزاب الجاهلية وقادة الانقلابات العسكرية ؟!

إذا كان رسول الله ﷺ قد اختار لابنته ما اختاره لنفسه من إيثار الآخرة على الدنيا ، ووسّع على أهل الصفة بما قدم عليه من السبي ، ورأى لأهله الصبر ، وإذا كان عمر بن الخطاب رضى أن يعطي زوجه ثمن قطعة حلوى لأن هذا الثمن سيدفعه من بيت مال المسلمين ، والفقراء أحق بهذا المال من زوجه كما كان يرى رضي الله عنه ... إذا كان رسول الله والخلفاء الراشدون من بعده كانوا يعيشون كذلك ، فهل تدرون كيف تعيش زوجات وبنات أدعياء العدالة والاشتراكية ؟! . إن أحدهم عند زواج ابنته أرسل طائفة خاصة إلى باريس ، وعادت محملة بالحلويات والثياب والورود ، وقد حدث هذا في حين كان شعبه يعاني الويلات من ارتفاع ثمن الخبز وغيره من المواد الضرورية وإذا كانت نفقة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه درهمين في اليوم ، فنفقة بطانة الرئيس القائد !! ونفقة حرسه وجواسيسه وخدمته تبلغ ملايين الدراهم في اليوم الواحد ، وليس في الشهر أو السنة .. أما نفقة الرئيس فغير محدودة ، وليس هناك من يجزؤ على المطالبة بتحديداتها .. وشتان شتان بين عمر بن عبد العزيز ، والرئيس الثوري الذي لاتعادل مساحة دولته ٥٪ من مساحة الدولة التي كان يحكمها أعظم مصلح جاء بعد الخلفاء الراشدين .

وإذا كان القادة المسلمون — الذين دانت لهم الممالك ، وقهروا

٥٣ — سير أعلام النبلاء : ٥ / ١٣٦ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، ص ٦٥ ، دار الكتب العلمية .

٥٤ — ديوان الفرزدق .

الجبارين — لا يميزون عن رعيّتهم في المأكل والمسكن وغيرهما ، ويعتبرون الحكم ابتلاء ومغرمًا ، ويخشون أن يظلم ولا تهم الرعية وهم لا يعلمون ... فالعلمانيون من طغاة عصرنا لهم شأن آخر ، فالحكم عندهم مغنم وتجارة و ثراء ، ومن أجل الوصول إليه يفنون البشرية إن استطاعوا ، ويهلكون أنفسهم من شدة إسرافهم في تناول ما يشتهون من الطعام والخمر والمخدرات .

أتدرون ماهو أثر هذه القيادات الفاسدة على الأجيال الناشئة ؟! إن أهل الحل والعقد في الأحزاب العلمانية الجاهلية يعلمون حق العلم بأن قيادتهم تندد بالظلم وهي من أظلم الظالمين ، تجمع بالحرية وهي التي تمارس أسوأ أنواع الاستبداد والإرهاب ، تزعم نصرّة العمال والفلاحين وسائر المستضعفين الكادحين وهي من ألد أعدائهم ، ومن أبعد الناس عنهم ، ترفع شعار محاربة الاستعمار وهي من ألصق الناس به .

ومن ينشأ ويتربى في هذه الأجواء الآسنة المحمومة ، لن ولن يكون عفيف النفس ، طاهر القلب ، بعيداً عن مواطن الشبهات . قال تعالى :

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ (٥٥) .

ومن خلال تجاربنا ومشاهداتنا بأن التلامذة رقم [١] للقائد العلماني الفاسد أكذب منه ، وأكثر نفاقاً ، وأعرق في البطش والإجرام ، ولهذا يسارعون إلى تصفية قائدهم عندما ترسخ أقدامهم ، وتشتد سواعدهم ... ويعجب المراقب من نفاقهم لقائدهم وهو في أوج قوته ، ومما صاروا يقولون عنه بعد الإطاحة به .

والتلامذة رقم [٢] أكذب وأسوأ من سلفهم ، وهكذا كلما جاءت أمة منهم لعنت أختها ، واعتاد الناس في البلدان المنكوبة على مثل هذه التناقضات ، ولهذا فهم لا يصدقون أجهزة إعلام الحزب ، ولو صدقت مرة من المرات ،

ويخطط هؤلاء المجرمون إلى تنشئة أجيال مبتورة الصلة بدينها وتاريخها ،
ويسعون بكل امكاناتهم إلى نشر الفساد وإشاعة الرذيلة . ولن تفلح أمة تسوسها
هذه القيادات الفاسدة المنحلة .

وبعد : لقد عشنا في هذه الصفحات مع شعيب عليه السلام في قوله
لقومه : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت
وماتوفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ . وعرفنا أهمية التربية بالقدوة ،
والفرق بين القدوات الطيبة الصالحة والقدوات الكافرة الفاسدة .

رابعاً - واجه شعيب قومه بانحرافاتهم

واجه شعيب عليه السلام قومه بانحرافاتهم كلها دون خوف ولا ضعف .
قال تعالى : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره
ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴾ (٥٦) . وقال : ﴿ ويا قوم أوفوا المكيال
والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا في الأرض
مفسدين ﴾ (٥٧) . وقال : ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط تُوعَدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ (٥٨) .

وانحرفات قوم شعيب نوجزها فيما يلي :

١ — عبادة غير الله من الأصنام والأوثان والأهواء وغيرها من الآلهة التي كان
يعبدها الآباء والأجداد .

٢ — سوء المعاملة في البيع والشراء ... كانوا إذا اكتالوا من الناس يأخذون
حقهم وزيادة ، وإذا كالوهم ينقصون .

٣ — كانوا يبخسون الناس أشياءهم ، وهذا أعم مما سبق ، فإن البخس يشمل
النقص والعيب في كل شيء ، والأشياء أعم من المكيل والموزون .

٥٦ — سورة هود ، الآية : ٨٤ .

٥٧ — سورة هود ، الآية : ٨٥ .

٥٨ — سورة الأعراف ، الآية : ٨٦ .

٤ — الفساد في الأرض ، بكل ماتعنيه كلمة فساد من ظلم وبغي وعدوان على الأنفس ، والأعراض ، والأموال .

٥ — الصد عن سبيل الله : كانوا يجلسون في الطرقات ، ويحذرون المارة من شعيب ، وكانوا يتوعدون المؤمنين ويتهذدونهم .

وشعيب عليه السلام كان حكيماً عاقلاً ، وكان يعرف العقلية التي يفكر بها الملأ من قومه ، وكان يعلم أن مايدعو إليه يعني سقوط النظام الفاسد ، كما يعني سقوط أقطاب هذا النظام واستبدالهم برجال لايعصون لله أمراً ، ولايعفون علواً ولا فساداً في الأرض ... وكان نبي الله عليه السلام يعلم بأن مواجهة الملأ بواحدة من هذه الانحرافات كاف لتأليب الرأي العام ضده ، ومناصبته العداء والسعي الجاد من قبل كافة الأطراف لنفيه من مدين أو قتله ، وفضلاً عن هذا فأنصاره قلة ضعاف — في مقياس أهل الأرض — لايقدرّون على حمايته ، ولا يملكون دفع الضر عنه ... ومع كل هذه الأخطار المتوقعة فلقد كانت دعوة شعيب عليه السلام منذ بدايتها قوية شاملة ليس فيها هوان ولا تردد ، ولا مجال فيها للمساومة وقبول أنصاف الحلول وأرباعها .

وعندما احمرت أنوف قومه ، وتطايير الشرر من أعينهم ، وهددوا نبي الله بالقتل ، أو بنفيه من أرض مدين وحرمانه من الحياة مع أهله وعشيرته ... لم يضعف شعيب عليه السلام ولم يلتمس لنفسه الأعذار ... لم يقل : فعلت وسعي وكفى ، ولا بأس من مهادنة الملأ طالما تركوني ومن آمن بدعوتي نعبد الله ولا نشرك به شيئاً فلهم دينهم ولي دين ... ولم يقل : كان من الأفضل مواجهةهم منذ بداية الدعوة بتطفيف الكيل والميزان فإن استجابوا واجهتهم بمشكلة أخرى ، وبمثل هذه المرحلية أحقق فوائد أكثر ، وتكون معارضتهم أخف وطأة ، وأقل حدة (*) ... ولم يقل أحد من المؤمنين بدعوته : كلفتنا ما لانطق ، وأوقعت بيننا وبين قومنا العداوة والبغضاء ، ولم تترك لنا من بينهم صديقاً نلجأ إليه أو نستعين به عند الشدائد .

لقد كان شعيب عليه السلام ومن معه مؤمنين بدعوتهم إيماناً لا يتزعزع ،

* — استفدت في هذا الموضع من كتابات سيد قطب رحمه الله

لا يخيفهم التهديد ولا الوعيد ، وفي أحلك الظروف وأشدّها حرجاً . قال مخاطباً قومه كما أخبرنا الله جلّ وعلا :

﴿ وَيَا قَوْمِ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ اِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا اِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ (٥٩) .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : « ولما يئس نبي الله شعيب من استجابتهم له قال يا قوم ﴿ اعملوا على مكانتكم ﴾ أي طريقتكم وهذا تهديد شديد ﴿ إني عامل ﴾ على طريقي ﴿ سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ﴾ أي مني ومنكم ﴿ وارقبوا ﴾ أي انتظروا » اهـ (٦٠) .

[ويا قوم اعملوا على مكانتكم] : اعملوا ماتمليه عليكم أهواءكم من فساد وظلم وطغيان وصد عن سبيل الله ... ودبروا ماتقدرون عليه من مؤامرات ضدنا .. ونفذوا أوامر الشيطان .. افعلوا ماتشاؤون .. لن نخشاكم ، ولن نتكذب الطريق الذي سلكناه ، ولن نضعف أو نستكين أو نتوانى !!

[إني عامل] سأمضي في طريق الرسالة لأحيد عنه ، وسوف أستمّر في دعوة الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ... وستعلمون غداً الصادق من الكاذب ، والأمين من الخائن .. إني واثق من نصر الله تعالى وتمكينه لنا . قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرَ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (٦١) . أجل سينصرنا الله تعالى أسماؤه وصفاته .. وستعرفون ضعفكم وهوانكم يوم لا تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئاً .

ومواجهة شعيب عليه السلام لقومه بانحرافاتهم ليست رأياً شخصياً ارتآه أو اجتهداً اجتهدّه ، فهو عبد لله ورسوله ، وليس له من الأمر شيء ، قال تعالى :

٥٩ — سورة هود ، الآية : ٩٣ .

٦٠ — تفسير ابن كثير : ٢ / ٤٥٨ ، البايي الحلبي .

٦١ — سورة غافر ، الآية : ٥١ .

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ، فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ (٦٢) .

إن هذه المواجهة أرادها الله جلّ وعلا ، ونبي الله ينفذ أوامر ربه التي يأمره بتبليغها لعباده ... وهي منهج رباني خالد لا يعتريه غموض ولا تكتنفه تناقضات ... وبعد آلاف السنين مازلنا نقرأ فقرات هذا المنهج في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ومما ينبغي التنبيه إليه أن نبي الله شعبياً عليه السلام لم يحذر قومه من منكرات لا يعرفونها ، ولم يشغل أذهانهم في الحديث عن ذنوب ومعاصي لا وجود لها بينهم ... فهو عليه السلام لم يُحَدِّثْ المَلَأَ عن النفاق وأنواعه ، ولم يذكر لهم صفات المنافقين وأساليبهم ووجوب الحذر منهم ومما يدبرون من مؤامرات وينشرون من شائعات ... ولم يطلب من قومه الإقلاع عن شرب الخمر ، وبيّن لهم أخطاره والأضرار الناجمة عن تعاطيه ... إن أنبياء الله جميعاً لا يشنون الحملات ضد أمور غير متفشية بين أقوامهم ، ويسكتون عن المنكرات والمظالم الواقعة خوفاً من البطش والتنكيل كما يفعل كثير من المنسويين إلى العلم والدعوة في واقعنا المعاصر وما أكثرهم !!

وهذا هو منهج أنبياء الله جميعاً في الدعوة ، فدعوة لوط عليه السلام تتلخص في عبادة الله وحده لا شريك له ، وفي وجوب عدم إتيان الذكران من العالمين ، وترك ما خلق الله من النساء ... ومازاده تهديد قومه ووعيدهم إلا ثقة بنصر الله وثباتاً على الحق .

وواجه خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد ﷺ أهل مكة بانحرافاتهم ، فعاب آلهتهم ، وسفه أحلامهم ، ودعاهم إلى نبذ التقاليد التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ، فعادته وأصحابه قريش ، وظلمتهم ، وضيق عليهم ، وعذبتهم ، فمات منهم من مات ، وهاجر من هاجر ، وعمي من عمي .

عن أبي عبد الله خباب بن الأرت رضي الله عنه قال : شَكَّوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مَتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْنَا : أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو لَنَا ؟ فَقَالَ : « قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُخْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمُنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نَصْفَيْنِ وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَاللَّهُ لَيَتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاکِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ » (٦٣) .

ولم يشن اضطهاد قريش المسلمين عن المضي في طريق الدعوة إلى الله ، وكانت الآيات القرآنية التي تنزل على رسول الله ﷺ تزيد من ضراوة المعركة بين المشركين والمسلمين . انظروا إلى قوله جل وعلا :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (٦٤) .

وقوله :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ، سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ (٦٥) .

وقوله :

﴿ فَلَا تُطْعَمُ الْمُكَذِّبِينَ ، وَذُؤُوا لَوْ تَذَهَبُ فَيَذْهَبُونَ ، وَلَا تُطْعَمُ كُلُّ خَلَافٍ مُهِينٍ ، هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ ، مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ، عُتُلٌّ

٦٣ — رواه البخاري في صحيحه في كتاب مناقب الأنصار ، باب الفتح ٧ / ١٦٤ ، ح ٣٨٥٢ ، ط السلفية . وفي رواية : « وهو موسد بردة وقد لقينا من المشركين شدة » .

٦٤ — سورة الكافرون .

٦٥ — سورة المسد .

بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ، أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَنِينٍ ، إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، سَنَسِمْهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿ ٦٦ ﴾ .

« وفي تفسير قوله تعالى ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ قال البخاري في
صحيحه : رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة . وقال الحافظ في [الفتح] :
اختلف في الذي نزلت فيه ، ف قيل : هو الوليد بن المغيرة ، وقيل : الأسود
ابن عبد يغوث ، وقيل : الأخنس بن شريق » (٦٧) .

ففي هذه الآيات مفصلة تامة بين المسلمين والمشركين ، لقد أمر الله
نبيه بعدم طاعتهم أو الركون إليهم ، أو مهادنتهم ، وليس هناك أي مجال
للمصالحة مع اختلاف الدين والأهداف ، ومما ينبغي التأكيد عليه أن هذه الآيات
كانت تنزل في أخرج المراحل التي تمر بالدعوة الإسلامية ، كان المسلمون
قلة وكانوا مستضعفين ، بينما كان المشركون هم الغالبية العظمى ، وأهل الحل
والعقد في مكة ، وكان لهم شأن كبير في الجزيرة كلها ... ومن جهة ثانية
فهذه الآيات التي كانت تتوالى على رسول الله ﷺ لا تبقى تلاوتها سرّاً بين
الرسول وأصحابه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، وإنما كانت تتلى
على المشركين في نواديهم ، وكان الصحابة يتسابقون في تنفيذ هذا الواجب مهما
غلت التضحيات لأن تبليغ الدعوة عندهم كان أهم من الحياة الدنيا ونعيمها .

وماذا نتظر أن يفعل زعماء قريش عندما يرون عبيدهم والمستضعفين منهم
وهم يتلون هذه الآيات ، ويتحدون بها الملاء ... وماذا نتظر أن يكون موقفهم
من محمد ﷺ وهو يصف قيادتهم بالكذب والمداينة والنميمة والإثم
والبغي ... ويكون هذا الوصف قرآناً يتلوه المسلمون صباح مساء ؟!

مما لا شك فيه أنهم فعلوا كل ما يقدرون عليه من إرهاب وبطش وتنكيل
وتعذيب وتجويع ومطاردة وقتل ... وكان لبني هاشم موقف طيب من رسول

٦٦ - سورة القلم ، الآيات : ٨ - ١٦ .

٦٧ - صحيح البخاري : ٨ / ٥٠٧ ، والفتح ٨ / ٦٦٢ ، ح ٤٩١٧ ، التفسير ، باب قوله تعالى ﴿ عتل
بعد ذلك زنيم ﴾ .

الله ﷺ ، وفي حساب أهل الأرض من الذين يقدسون مصالحهم ، ويهتمون بالتحالفات ، ويحرصون على تحقيق الأرباح ، ويتجنبون الخسائر ... في حساب هؤلاء لا يصح أن يفجر المسلمون خلافاً مع بني هاشم في هذه المرحلة ، ومن المصلحة أن يتجاوزوا عن أخطاء زعمائهم ... هذه حسابات أهل الأرض التي تختلف اختلافاً جذرياً عما أراده الله سبحانه وتعالى لنبيه ومن آمن معه من المسلمين ، فلا فرق بين أصنام بني هاشم وأصنام عامة الناس من قريش ، ولا فرق كذلك بين عادات وتقاليد بني هاشم وبقية قريش ، وإذن فالدعوات الإسلامية كانت تستهدف عقائد وتقاليد بني هاشم كما كانت تستهدف عقائد وتقاليد بقية القرشيين ، وما كان دفاع بني هاشم عن رسول الله ﷺ ليغير من منهج الله تعالى في مواجهة المبطلين .

ومن ثم فهناك أمر بالغ الحساسية . لقد أنزل الله جلّ وعلا قوله : ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ... ﴾ وأبو لهب هو عبد العزى عم رسول الله ﷺ ، وامراته ﴿ وامراته حمالة الحطب ﴾ أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان ، وسوف يغضب بنو هاشم من محمد وأصحابه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم بعد نزول هذه الآيات ، وقد يكون غضبهم وغضب غيرهم أشد لأن المسلمين أصبحوا يتلون هذه السورة التي ورد فيها ذكر امرأة منهم !! ولا يغيب عن أذهاننا شدة الحرج الذي تشعر به القبيلة من مثل هذا الحدث ... ولكن الله سبحانه وتعالى قد اختار لخاتم أنبيائه ورسله هذا المنهج وأمره أن يصدع به ويعرض عن المشركين ، كما أمره جلّ وعلا أن يلتمس النصر والتمكين من الله وحده لا شريك له ، وليس من هذه القبيلة أو تلك .

وبعد الهجرة من مكة إلى المدينة واجه رسول الله ﷺ المنافقين واليهود بانحرافاتهم ، وبيّن سبحانه وتعالى لنبيه أخلاق المنافقين وصفاتهم ووسائلهم ، كما بين تعالت أسماؤه وصفاته لنبيه أخلاق اليهود وعاداتهم ومواقفهم من أنبياء الله ، وحذّره من كيدهم ، وفتنهم ، وكانت هذه المواجهة شاقة مرهقة ، وتختلف عن أسلوب مواجهة المشركين في مكة ... ولهذا صرنا نجد آيات

كثيرة وكثيرة جداً تتحدث عن المنافقين واليهود ، وما بينهما من أحلاف ومواثيق سرية ضد رسول الله وأصحابه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، بل وكان المنافقون واليهود يتعاونون وينسقون سراً مع المشركين في مكة وما حولها ، ولا غرابة في ذلك فالكفر ملة واحدة وإن اختلفت أسماؤهم وتباينت أساليبهم ، وهذا هو شأنهم في القديم والحديث .

وسار الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام المجددون على نهج نبيهم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم فواجهوا أقوامهم بانحرافاتهم ، فلقد حاول الصحابة وفي طليعتهم عمر بن الخطاب رضي الله عنهم اقناع أبي بكر الصديق بعدم قتال المرتدين — وكان معظم أهل الجزيرة قد ارتدوا — فأبى الصديق رضي الله عنه وبين للصحابة أهمية الأدلة التي يعتمد عليها ، وأكد أنه لا بد من مواجهة المرتدين بما يستحقون ، وكان الحق مع أبي بكر ، وأدرك الصحابة جميعاً صحة أدلة الصديق ، فانعقد إجماعهم على وجوب قتال المرتدين ، ومن جملتهم الذين امتنعوا عن دفع الزكاة .

وواجه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رحمه الله أهل الحل والعقد من بني أمية بأخطائهم وانحرافاتهم ، فعزل الولاة والقادة الظالمين ، ورد المظالم إلى أصحابها ، ومنع سياسة التبذير والترف ، وكان يعلم أنه سوف يصصم مع أبناء عمومته وأقرب أقربائه ، ومع ذلك اختار ما كان عليه الرسول والخلفاء الراشدون صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

وواجه إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله المأمون بانحرافاتة ، ورفض السكوت عن إنكار المنكر ، وآثر السجن والتعذيب والنفي والتهديد بالقتل ، ولم يقبل ما قبله غيره من علماء عصره من الرخص ، وكان رحمه الله وهو مكبل بالقيود في السجن أقوى من المأمون وجيشه وقوات أمنه .

لقد دحض رحمه الله أباطيلهم ، وفند شبهاتهم ... وأخيراً أخذ الله المأمون والمعتصم والواثق وقادة أهل الاعتزال ، ونصر الله بالإمام أحمد السنة ، وقمع به البدعة والمبتدعين .

وواجه صلاح الدين الأيوبي رحمه الله الرافضة الباطنيين بانحرافاتهم ،
لقد كانوا عوناً للغزاة الصليبيين ، ومعاول هدم داخل الصف الإسلامي ، ودعاة
فتنة وإرهاب ، وحاولوا قتل صلاح الدين ، ولكن الله نجّاه ومكّنه من قهرهم
ومن القضاء على ممالكهم ، ونجح صلاح الدين في تحرير القدس وماحولها
وهزم الصليبيين بعد أن هزم عملاءهم .

أما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فواجه مشكلات وانحرافات كثيرة
من أهمها :

١ — التعصب المذهبي الذميمة ، وتقديس الرجال ، وتقديم أقوالهم على الكتاب
والسنة .

٢ — غلاة الصوفية الذين يقولون بالحلول ووحدانية الوجود .

٣ — الرافضة ، وعموم الباطنيين كالدروز والنصيريين .

٤ — أهل الاعتزال والفلاسفة .

٥ — احتلال التتار لبلاد المسلمين .

ولم يهادن رحمه الله جهة من هذه الجهات المنحرفة ، ولا تراجع عن
حق يدعو إليه رغبة أو رهبة ، وفضلاً عن ذلك كله لقد حقد عليه كثير من
علماء عصره ، وكثر حساده الذين كانوا يتسابقون في التزلف للسلطان ، وكانوا
لا يخلعون من الكذب عليه ورميه بما ليس فيه ، وكان رحمه الله يشفق عليهم
ويعفو عنهم عند الاستطاعة ، وكان يترفع عن الصغائر ، ويزهد في ملاذ الدنيا
ونعيمها ، ودخل السجن مرات ومات فيه ، وكان يراه نعمة من نعم الله عليه ،
وحقق شيخ الإسلام انتصارات رائعة بسيفه مع التتار والباطنيين ، وبقلمه مع أعداء
الإسلام ومع أصحاب البدع والأهواء وأعز الله به عقيدة ومنهج أهل السنة
والجماعة .

وواجه الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله قومه بانحرافاتهم ، فدعاهم
إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونبذ كل ما يعبدون من دونه من أوثان وأصنام
لا تضر ولا تنفع ، ودعاهم أيضاً إلى التمسك بالكتاب والسنة والبعد عن التعصب

المذهبي الذميمة ... فطارده الطغاة ، واضطر إلى كثرة التنقل من مكان إلى آخر خوفاً من بطش أعدائه ، وأخرجوه من قريته ، وحاولوا قتله أكثر من مرة ، فما زاده كيدهم إلا ثباتاً على الحق ، واستمسكاً بالمنهج الذي يؤمن به ويدعو إليه ، وبعد جهاد طويل يسر الله له من ينصره ويأويه ، فكان رحمه الله من أكبر المجددين في عصره ، ونصر الله به الحق وأهلك خصومه .

وبعد :

هذه نماذج اخترناها من سير أنبياء الله ورسله ومن اقتفى أثرهم من المجددين المصلحين ... لقد كانوا جميعاً يواجهون أقوامهم بانحرافاتهم ... وكانوا جميعاً ينطلقون من منهج واضح ... وكانوا يقدمون لمجتمعاتهم البديل الصحيح بكل حزم وشجاعة ... ولسنا مخيرين في قبول هذا المنهج أو رفضه لأن الله جلّ وعلا أنزله ، وأمرنا باتباعه ولا يشذ عنه إلا هالك .

ولا يجادل مسلم عالم منصف في أن أخطر مشكلات وانحرافات هذا العصر استبعاد وتنحية شريعة الله ، والاحتكام إلى الشرائع الأرضية الجائرة الفاسدة وإلى أقوال وآراء رجال منحرفين !!.

— فما بال ناس من الناس ييغونها عوجاً ؟!

— ما بال ناس من الناس يواجهون الفقراء المستضعفين بشركياتهم وبدعهم ، ويسكتون عن شركيات وانحرافات عليّة القوم ؟!

— ما بال هؤلاء الناس يهدرون أوقاتهم في عرض قضايا عفا عليها الزمن ، ولا تخدم الأهداف والغايات التي يجاهد الدعاة المخلصون من أهل السنة لتحقيقها في هذا العصر ؟!

— ما بالهم يحاربون المقلدين ودعاة التعصب المذهبي الذميمة ، وهم الذين يجمدون ويتعصبون لآراء وأقوال رجال ليسوا كرجال خير القرون بحال من الأحوال ؟!

— ما بالهم يتعصبون لبقع جغرافية ضيقة صنعها المستعمرون أعداء الإسلام قبل

أقل من قرن !؟

ولو أنهم وقفوا عند هذا الحد لهان الأمر ، ولكنهم بكل أسف تجاوزوا كل معقول وممكن عندما نصبوا أنفسهم محامين عن الظلمة في كل مايقترفون من جرائم ، ويتبارون في تسويغ الأعذار لهم ، وفي إصدار الفتاوى المؤيدة لهم ، ويشككون بمواقف ونوايا ضحايا الظلمة من الدعاة الذين يرفضون الدنية في دينهم ، وينعتونهم بالغلو والتنطع .

كم قلنا لهؤلاء الناس : إذا كنتم لاتستطيعون أو لا تريدون قول الحق كله فلا تقولوا الباطل ، وإذا كنتم ترون نقداً لإخوانكم إبان محتتهم بسبب أخطاء ارتكبوها بقصد تحذير الناس منها [وقد يكون من حقكم نقدهم] ، فلماذا تسكتون عن نقد الطغاة الذين يستبيحون دماء الدعاة الأحرار ، وأنتم تقرأون في كتاب الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، أولئك الذين خَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (٦٨) .

لست أدري كيف يسكت هؤلاء عن بيان حقيقة الذين يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ألا يخشون أن يكون مثلهم كمثل الذين نزلت بحقهم الآية الكريمة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أولئك يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ (٦٩) .

والمشكلة أن بعض هؤلاء — الذين يسكتون عن جرائم الطغاة بل ويدافعون عنهم بحرارة — يعربون دوماً عن إعجابهم الشديد بسيرة أحمد بن

حنبل وسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهما من علماء وأئمة أهل السنة والجماعة ، وهذا الإعجاب — لو كانوا صادقين — يجب أن يتحول إلى واقع ملموس في أخلاقهم ومواقفهم . قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

« وقال بعضهم لأحمد بن حنبل إنه يثقل علي أن أقول فلان كذا وفلان كذا ... فقال : إذا سكت أنت وسكت أنا فمتى يعرف الجاهل الصحيح من السقيم ، ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة والعبادات المخالفة للكتاب والسنة ... فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين حتى قيل لأحمد بن حنبل : الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك أو يتكلم في أهل البدع . فقال : إذا قام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه ... وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين وهذا أفضل .

فتبين أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم من جنس الجهاد في سبيل الله إذ تطهير سبيل الله ودينه ومنهاجه وشريعته ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين ، ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين ، وكان فساد أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب ... فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين تبعاً وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداء » اهـ (٧٠) .

ألا قاتل الله الهوى والذل والهوان وكراهية الموت في سبيل الله ، فلو كان بيننا أحمد بن حنبل وابن تيمية وغيرهما من الأئمة الأعلام لما قبلوا أن يحتكم الناس في بلادنا لغير شرع الله ... لو كان بيننا أمثال هؤلاء الرجال الأبطال لواجهوا من هم أكثر خبثاً من المأمون وأهل الاعتزال وغيرهم من المبتدعين الضالين الذين يفسدون القلوب ابتداء .

ومواجهة الملاء بانحرافاتهم لاتعني إشعال نار الفتنة بين المسلمين ، فمن ينكر منكراً لايجوز له أن يرتكب منكراً أكبر من الذي أنكره ، وإطفاء النار

بالنار لا يزيدھا إلا اشتعالاً ، فرسول الله ﷺ لم يطلب من الذين آمنوا بدعوته حمل السلاح وقتال الكافرين المشركين في مكة ، وكذلك كان شعيب وغيره من أنبياء الله عليهم السلام ، وكذلك فعل الإمام أحمد بن حنبل ، لقد واجه المأمون بانحرافاتہ ، ولم يطلب من أحد الخروج عليه ولا أفتى بكفره ... وقد أحببت ذكر هذه الملحوظة حتى لا يساء فهم ما قصدت من المواجهة ، وتفصيل ذلك سيكون في موضع آخر إن شاء الله .



الفصل الثالث

صراع شعيب مع قومه

- أولاً — رسول أمين .
- ثانياً — ولا تبخسوا الناس أشياءهم .
- ثالثاً — الصد عن سبيل الله .
- رابعاً — ردود مكررة .
- خامساً — فصل الدين عن السياسة .
- سادساً — ولولا رهطك لرجمناك .
- سابعاً — التهديد بالنفي .
- ثامناً — اعملوا على مكانتكم إني عامل .

أولاً - رسول أمين

قال تعالى : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾ (١) .

قوله ﴿ وإلى مدين ﴾ : أي إلى أهل مدين لأن مدين بلد ، ومثله واسأل القرية واسأل العير يعني أهل القرية وأهل العير (٢) .

وقوله ﴿ أخاهم شعيباً ﴾ : أي ابن أبيهم وهي أخوة نسب ولا أخوة دين ... ومدين بلد صغير ، وأهلها يعرفون بعضهم حق المعرفة ، وفيها ولد شعيب عليه السلام ، وعلى أرضها نشأ وترعرع ، وليس بين أهلها من يجهل صدقه ، وعفة لسانه ، وطهارة قلبه . قال تعالى :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ،
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ
أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

قوله ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ : أي صادق فيما أبلغكم عن الله تعالى ، أمين فيما بينكم ، فهم قد عرفوا من قبل أمانته وصدقه في جميع أقواله وأفعاله ، ومن كان صادقاً أميناً في أمور الدنيا ، لا يمكن أن يكذب على ربه ، وكذلك أنبياء الله جميعاً . قال تعالى : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ، إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرني إلا على رب العالمين ، فاتقوا الله وأطيعون ﴾ . وقال : ﴿ كذبت عاد المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ، إني لكم رسول أمين ... ﴾ . وقال : ﴿ كذبت ثمود المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم صالح

١ — سورة الأعراف ، الآية : ٨٥ ، وسورة هود ، الآية : ٨٤ .

٢ — البخاري ، باب قول الله تعالى ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾ انظر فتح الباري : ٦ / ٣٢٣ ، دار المعرفة .

٣ — سورة الشعراء ، الآيات : ١٧٦ — ١٨٠ .

ألا تتقون ، إني لكم رسول أمين ... ﴿٤﴾ . وقال : ﴿٥﴾ كذبت قوم لوط المرسلين ،
إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ، إني لكم رسول أمين ... ﴿٤﴾ .

فأنبياء الله كانوا أمناء صادقين ، وكانوا أسوة حسنة لأقوامهم ، وتكذيب
قوم شعيب لرسولهم ، تكذيب لجميع الرسل ، لأن المَكْذِبِينَ قد حددوا موقفاً
من المنهج الذي أنزله الله على جميع رسله ، ومن التبجح والافتراء على الله
أن تزعم طائفة أو قوم بأنهم يؤمنون بدعوة موسى أو عيسى وينكرون دعوة
محمد صلى الله عليه وسلم وعلى إخوانه أنبياء الله ، وسوف يتبرأ منهم أنبياء
الله جميعاً يوم يقوم الناس لرب العالمين .

وإذن فشعيب عليه السلام كان أميناً صادقاً ، وقد جاء قومه ببينة تدل
على صدق نبوته ، وما كان يسأل أهل مدين أجراً ، أو يبغي عندهم جاهاً ،
أو يطلب منهم نفعاً . قال تعالى : ﴿٥﴾ وما أسألكم عليه من أجر إن أجرينى إلا
على رب العالمين ﴿٥﴾ .

ولو كان يبحث عن مغنم ، أو يبحث عن منصب لكان هناك مجال للشك به
وبدعوته .

وفضلاً عن هذا وذاك ، فلقد كان يدعو قومه إلى العدل والرحمة
والمساواة ، ويحذرهم من الإشراك بالله والظلم والاستبداد ... وبشكل أكثر
وضوحاً كان يدعوهم إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وكان حريصاً على
هداية قومه ، مترفعاً عن صغائرهم لا يقابل جهلهم بجهل ولا شططهم بشطط ،
وغريب جداً أن لا يستجيب قومه لدعوته ، ولا يعقدوا اللواء له ، والأغرب من
هذا أن يتهموه بالكذب وغيره من الاتهامات الباطلة .

ثانياً - ولا تبخسوا الناس أشياءهم

قال تعالى : ﴿٦﴾ وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ

٤ - سورة الشعراء ، الآيات : ١٠٥ - ١٦٢ .

٥ - سورة الشعراء ، الآيات : ١٨٠ ... وفي الفصل السابق « دعوة شعيب » بينت كيف كان عليه
السلام قدوة حسنة لقومه .

إِلَهُ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ، وَيَأْقُومِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٦﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَأْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ ﴾ تقدم تفسير هذه الآية في الفصل السابق « دعوة شعيب » عليه السلام .

﴿ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾ أي : لا تطففوا ، لأنهم كانوا مع كفرهم أهل تطفيف ، كانوا إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد وكذلك إذا وصل إليهم الموزون أخذوا بوزن زائد ، وإذا باعوا باعوا بكيل ناقص ووزن ناقص ... والتطفيف من المحظورات أشد الحظر ، لما فيه من أكل أموال الناس بالباطل في الأخذ والدفع ، ولو في القليل . لأن من دُنُوْتُ نفسه إلى القليل دل على فساد طويته وخبث ملكته ، وأنه لا يقعه عن التوثب إلى الكثير إلا عجز أو رقابة (٧) .

﴿ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ : يريد بثروة واسعة تغنيكم من التطفيف ، أو أراكم بخير فلا تزيلوه عنكم بما تأتون من الشر كقول مؤمن آل فرعون : ﴿ يَأْقُومِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ (٨) .

﴿ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾ : وتكرر قوله في هذه السورة وغيرها : ﴿ يَأْقُومِ ﴾ يريد : يا أهلي وأقربائي إنني أحب لكم الخير والسداد في دينكم ودنياكم ، وأخاف عليكم من عذاب مهلك إن لم تنتهوا عن الشرك والتطفيف .

٦ — سورة هود ، الآيات : ٨٤ — ٨٦ .

٧ — الإكليل للسيوطي [عن محاسن التأويل] للشيخ محمد جمال الدين القاسمي ، مطبعة البابي الحلبي : ١٧ ، صفحة ٦٠٩٢ .

٨ — سورة غافر ، الآية : ٢٩ .

وقوله : ﴿ عذاب يوم محيط ﴾ أي : مهلك ، أو لا يشذ منه أحد ، كقوله تعالى : ﴿ وأحيط بشمره ﴾ (٩) ، وأصله من إحاطة العدو ، وإحاطة اليوم تدل على إحاطة كل مافيه من العذاب ، وقد جاءتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، وعذاب الدنيا لا يغني عن عذاب الآخرة فهم خالدون مخلدون في نار جهنم وبئس القرار .

وقول شعيب : ﴿ إني أخاف عليكم ﴾ يذكرنا بقول نوح لقومه : ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ ، وهكذا أنبياء الله ورسله يشفقون على أقوامهم ، ولا يقابلون السيئة بمثلها ، وهكذا يجب أن يكون الدعاة إلى الله . ﴿ ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ﴾ أي : أتموها ، والقسط : العدل ، وهو عدم الزيادة والنقص ، وإن كان الزيادة على الإيفاء فضل وخير ، وهذا أمر بالواجب بعد النهي عن ضده لتأكيد (١٠) .

﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ البخس : الهضم والنقص ، ويقال للمكس البخس ، وكانوا يأخذون من كل شيء يباع شيئاً كما تفعل السماسرة ، أو كانوا يمكسون الناس أو كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء فنهوا عن ذلك (١١) . وقال الألوسي : « وقيل : المراد بالبخس المكس كأخذ العشور على نحو ما يفعل اليوم » . قلت : رحم الله الألوسي ، لقد جاء قوله هذا في تفسيره : « روح المعاني » الذي كتبه قبل بضعة عقود ، ترى ماذا كان سيقول لو عُمر قليلاً ورأى الأنظمة التي تسمى بالاشتراكية ، وقوانين التأمين ومصادرة أموال الناس وممتلكاتهم !؟

ماذا كان سيقول لو رأى القوانين الربوية والأنظمة المصرفية !؟ . لقد شاهد رحمه الله بدايات الانحراف ، وكانت هذه البدايات مستغربة أشد الاستغراب عنده ، وعند أمثاله من العلماء ، وأصبحت هذه الانحرافات — رغم خطورتها وبشاعتها — شيئاً مألوفاً عند كثير من علماء عصرنا ، مع أنه بينهم

٩ — سورة الكهف ، الآية ٤٢ .

١٠ — الكشف ، تفسير سورة الشعراء ، ص ١٢٧ .

١١ — روح المعاني ، الألوسي البغدادي ، الجزء الثاني عشر ، سورة هود ، ص ١١٦ .

وبين الألوسي بضعة عقود من الزمن !!.

وبعد هذا الاستطراد نعود إلى الحديث عن البخس ، جاء في المنار :
« هذا أعم مما سبقه فإن البخس يشمل النقص والعيب في كل شيء ،
يقال بخسه حقه وبخسه ماله وبخسه علمه وفضله . والأشياء جمع شيء وهو
أعم الألفاظ وجمعه يشمل ما للأفراد وما للجماعات والأقوام من مكيل وموزون
ومعدود ومحدود بالحدود الحسية ومن حقوق مادية ومعنوية » (١٢) .

وبخس قوم شعيب ومعظم تجار عصرنا نوع من أنواع البخس الكثيرة ...
فمن البخس : تشويه المستعمرين وعمالئهم لتاريخ استقلال معظم بلدان العالم
الإسلامي . لقد عمدوا إلى ترويج الإشاعات وتلفيق التهم وإصاقها بالعلماء
الأبطال الذين قادوا الأمة في جهادها ضد المستعمر الدخيل ... ومن جهة أخرى
صنعوا زعامات مزيفة ، وسلكوا سبلاً فيها من الخبث والدهاء ما يحير أولي
العقول والألباب ، ومن ذلك قيامهم باعتقال ومطاردة عملائهم من أجل أن
يكسبوا عطف الجماهير التي تؤيد وتحب كل من يقاوم المستعمرين ، وأخرجت
الجماهير هؤلاء الأقزام من المعتقلات ، أو استقبلتهم بعد عودتهم من المنفى ،
ليفاوضوا أسيادهم ويتمموا المسيرة بعدهم .

ومن البخس : ما يزعمه المستشرقون ودعاة التغريب من تجرد وحياد
وموضوعية في أبحاثهم ومؤلفاتهم ، لكنهم فيما يكتبون عن الإسلام يتنكرون
لما يزعمون من حياد أشد التنكر ، ويلجأون إلى الدس وتلفيق الروايات ،
ويستعينون بأكاذيب من سبقهم من أعداء الإسلام وأساطين الكفر والإلحاد ...
ثم تصبح — وبكل أسف — هذه المؤلفات مناهج في الجامعات والمعاهد
العلمية في بلدان العالم الإسلامي .

ومن البخس : اتهام العلماء الدعاة ، والجماعات الإسلامية بالتطرف
والإرهاب والتخلف والرجعية ، أما المنافقون الذين يتاجرون بدين الله ، ويبيعون

١٢ — تفسير المنار ، محمد رشيد رضا : ١٢ / ١٤٢ ، دار المعرفة — بيروت .

الفتاوى بدريهمات معدودات فهؤلاء تطلق عليهم أجهزة الإعلام أوصافاً وألقاباً فضفاضة كقولها عنهم : دعاة الاعتدال والشرعية والتقدم .. وإذا قام طاغية بحفر الأخاديد ، ونصب المشانق ، وفتح أبواب السجون والمعتقلات ليزج فيها بالأبرياء الآمنين .. تطوعت الصحافة ووكالات الأنباء العالمية ينقل اتهاماته المتناقضة المتهاففة ، مع أن مثل هذا الموقف يخالف أبسط أهداف الصحافة وغاياتها .. فكيف يكون المعتدى عليهم إرهابيين ، والمعتدي السفاح ليس إرهابياً؟! . وكيف تعتمد الصحافة في أخبارها على أقوال طرف وتهمل معرفة أقوال الطرف الآخر؟!!

ومن البخس : أن لا يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، وبشكل أخص فيما يسمى دول العالم الثالث حيث تقدم الولاءات الشخصية والحزبية على كل اعتبار آخر .. ويطارد أصحاب الكفاءات والاختصاصات النادرة ، ويفترى عليهم لأنهم يخالفون مواقف الطاغوت وحزبه ، وكم جرت هذه السياسة الطائشة من النكبات والمصائب على أمتنا ، فالضابط الطيار الذي أنفقت عليه أموال طائلة يعيش في السجن ، وفي أحسن الأحوال في مكتب إداري وليس له عمل يستحق الذكر ، هذا إذا كان ملتزماً بسلوكه الإسلامي ويعارض سياسة الحزب ومنهجه العلماني .

ومن البخس : تنحية شريعة الله جل وعلا ، والاحتكام إلى الشرائع الأرضية الجائرة الظالمة ، ولا يقبل الطغاة مجرد المساواة بين ما أنزله الله وما أمَلته أهواؤهم ، ولا يعطون القضية حرية الاختيار بين هذا وذاك .

ومن البخس : ظلم العاملين في حقل الدعوة الإسلامية لآخوانهم الدعاة سواء كانوا أفراداً أو جماعات ، فعندما يقع بينهم خلاف بسبب الحسد أو التنافس على حطام الدنيا الفانية ، يصبح الأخ في عين أخيه وكأنه شيطان رجيم ، فتراه ينتقد أعماله وأقواله ومؤلفاته ، ويتدخل بنواياه ، ويفسر عباراته وألفاظه تفسيراً ظالماً ليس فيه أدنى عدل ولا إنصاف .. ويستنفر أنصاره وأعوانه في معركة لا يريد من ورائها وجه الله تعالى ، ومعظم الأنصار ينصرون أخاهم وهو

ظالم ، ولا يطلبون منه برهاناً أو دليلاً ... وقد يستعين بالظالمين ضد أخيه ، وبعد هذا كله قد يعود المتخاصمان إلى سابق ودهما ، ويعود الشيطان — على حد زعم الخصم الظالم — تقياً ورعاً طيباً .. ألا مأحوجنا جميعاً إلى الالتزام بمعاني قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٣) .

ثالثاً - الصد عن سبيل الله

قال تعالى :

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَلَا تَقْعُدُوا بُكْلَ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبِغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكُثِرْكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١٤) .

﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ : بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل ، والبغي والعدوان على الأنفس والأعراض ، وإفساد الأخلاق بالإثم والفواحش الظاهرة والباطنة ، وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام ، فقد أصلح الله تعالى حال البشر بنظام الفطرة ، وكمال الخلقة ، ومن أبشع أنواع الفساد : الكفر بآيات الله ، وتكذيب رسله ، ومخالفة أمره ونهيه .. ومن الفساد في الأرض أيضاً : القتل ، والزنا ، والسرقه (١٥) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (١٦) .

١٣ — سورة المائدة ، الآية : ٨ .

١٤ — سورة الأعراف ، الآيات : ٨٥ و ٨٦ .

١٥ — تفسير المنار ، ٨ / ٥٢٦ ، ودعوة الرسل إلى الله تعالى ، محمد أحمد العدوي ، ص ١٥٦ .

١٦ — سورة الشعراء ، الآية : ١٨٣ .

وهذا نهى آخر عام يشمل غير ماتقدم كقطع الطرق وتهديد الأمن والخروج على السلطان وقطع الشجر وقتل الحيوان ، وقيدته بقصد الإفساد لأن بعض ما هو إفساد في الظاهر قد يراد به الإصلاح أو دفع أخف الضررين كالذي يقع في الحرب من قطع الأشجار ، أو فتح سدود الأنهار ، أو إحراق بعض الأشياء بالنار ، ومنه خرق الخضر للسفينة التي كانت لمساكين يعملون في البحر لمنع الملك الظالم الذي وراءهم من أخذها إذا أعجبته (١٧) .

وقوله تعالى : ﴿ .. بعد إصلاحها ﴾ بابتعاث أنبيائه ورسله ، ولهذا اجتباهم الله وأوحى إليهم وأرسلهم لإصلاح الأرض ومن عليها .. وكل من أعرض عن نهجهم أو اختار غير سبيلهم كان مفسداً ظالماً ، فلا يغرنك لين قول دعاة الباطل ، وقوة إعلامهم .

وقوله : ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ : إشارة إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل والميزان ، وإيفاء الناس حقوقهم ، وترك الفساد في الأرض ، فالله جلّ وعلا يأمر بالعدل والإحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر ، وكل ما يأمرنا به فيه خير وصلاح لنا في ديننا ودنيانا .

وقال تعالى في سورة هود : ﴿ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ ﴾ (١٨) .

قال أبو جعفر : « ما أبقاء الله لكم ، بعد أن توفوا الناس حقوقهم بالمكيال والميزان بالقسط ، فأحله لكم ، خير لكم من الذي يبقى لكم ببخسكم الناس من حقوقهم بالمكيال والميزان » . ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ (١٩) .

وقوله تعالى : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ : أي إذا آمنتم بالله ، وصدقتم بوعدده ووعدته ، وحلاله وحرامه .

١٧ — تفسير المنار ، تفسير سورة هود .

١٨ — سورة هود ، الآية : ٨٦ .

١٩ — سورة المائدة ، الآية : ١٠٠ .

وقوله : ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به ﴾ .

الصراط : الطريق . والصد عن سبيل الله : هو صرف الناس عن الطريق الذي قعدوا عليه ومنعهم من الوصول إلى شعيب عليه السلام ، فإن سلوك الناس في ذلك السبيل للوصول إلى نبي الله هو سلوك سبيل الله .
وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية :

« ينهاهم شعيب عليه السلام عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ﴾ أي تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم .. [ثم ذكر ابن كثير قولين للمفسرين : الأول أن قوم شعيب كانوا عشارين ، والثاني بأنهم كانوا يتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه] » (٢٠) .

ومن خلال ما عرضنا من أقوال المفسرين يتبين لنا مايلي :

— كان قوم شعيب قطاع طرق يروعون الآمنين ، ويسلبون المارة ، ويفسدون في الأرض .

— وكانوا عشارين ظلمة .. يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويتخذون من هذا الباطل قانوناً لايجوز الخروج عليه .

— وكانوا يصدون عن سبيل الله ، وهذا الصد ليس موقفاً شاذاً من المواقف التي يتخذونها في حياتهم ، وإنما أصبح شغلهم الشاغل وأخص صفاتهم التي يتصفون بها ، ولهذا فهم يمنعون أي قادم على مدينتهم من زيارة شعيب عليه السلام والتعرف عليه .

— وكانوا ييغونها عوجاً : أي ضلالاً عن الحق ، وزيغاً عن الاستقامة على الهدى والمحجة ، و « العِوَج » لغة الأود والميل .

فأهل الكتاب ييغونها عوجاً ، لأنهم غيروا وبدلوا في دين الله استجابة لنزواتهم وشهواتهم ، واشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ، وصدوا عن سبيله . قال

٢٠ — تفسير ابن كثير ٢ / ٢٣١ ، وتفسير الطبري : ١٥ / ٤٤٣ تحقيق محمود محمد شاكر .

تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبُغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢١) .

والذين يدعون إلى غير منهج أنبياء الله — في القديم والحديث — ييغونها عوجاً ، لأنهم يتبعون ماتهوى الأنفس ، ويستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويفسدون في الأرض . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَیْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ (٢٢) . وقال : ﴿ فَأُذِنَ لَهُمْ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَیْغُونَهَا عِوَجًا . وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾ (٢٣) .

وبعض الذين ييغونها عوجاً يكفرون بالآخرة ، وبعضهم الآخر لا يكفر بالآخرة ، لكنهم يفضلون شهواتهم على كل شيء ، فهم عبيد لها ، ومن أجلها يخوضون المعارك ، ويسفكون الدماء ، ويستبيحون المحرمات .. وإنه لافرق بين الذين يؤمنون بالآخرة وبين الذين لا يؤمنون من حيث النتائج والغايات . ومن يسبر غور الذين ييغونها عوجاً من دعاة العلمانية والاشتراكية والرأسمالية ومن نحا نحوهم يجد العجب العجيب .. فهذا نكّل برفاق دربه لينفرد في الحكم ، وذاك قتل أصحابه وألصق بهم أموراً عارية عن الصحة حتى لا يجد من يقول له [لا] .. وصنف ثالث من الناس ملأوا الدنيا صراخاً بشعارات وأهداف براءة ، وعندما وصلوا إلى الحكم أصبحوا من ألد أعداء هذه الشعارات التي كانوا يرفعونها ، بل إن بعضهم قد تجده اليوم اشتراكياً وغداً رأسمالياً ، أو تجده في حين من الزمن يوالي السوفييت ، وفي حين آخر يوالي الأمريكان دون خجل ولا حياء .

وتتضاعف في نفوس هؤلاء حب الشهوات ، فتغدو وظيفتهم الوحيدة في الأرض الصدد عن سبيل الله ، لأن سبيل الله تعالى يصصدم مع أهوائهم وشهواتهم

٢١ — سورة آل عمران ، الآية : ٩٩ .

٢٢ — سورة إبراهيم ، الآية : ٣ .

٢٣ — سورة الأعراف ، الآيتان : ٤٤ و ٤٥ .

ومواقفهم المتقلبة المتغيرة ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فأروها حسنة .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : خط لنا رسول الله ﷺ خطأ ثم قال : هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال : هذه سبل متفرقة ، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (٢٤) .

فصراط الله مستقيم ليس فيه عوج ولا انحراف ، وهو الطريق الذي أمرنا جلّ وعلا أن نتبعه ولا نحيد عنه ، والخطوط التي خطها رسول الله ﷺ عن يمينه وشماله هي طرق معوجة تنتهي بسالكها إلى النار وبئس القرار ، وجمع سبحانه وتعالى السبل لتفرقها وتشعبها كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . وتشمل هذه السبل كل فرقة أو مذهب أو حزب أو جماعة تعبد غير الله تعالى ، أو تنادي بغير المنهج الذي أنزله على أنبيائه عليهم أفضل الصلاة والتسليم .

رابعاً - ركود مكررة

قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ... ﴾ (٢٥) . قال المفسرون : أي مانفهم ماتقول ، وكأن كلامه من قبيل التخليط والهديان الذي لا يفهم معناه ، ولا يدرك فحواه .. وقيل : قالوا ذلك استهانة به عليه السلام كما يقول الرجل لمن لا يعبأ به : لا أدري ماتقول ، وكما قال مشركو مكة لرسول الله ﷺ : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي آذَانِنَا وَقَدْ قَرَأْنَا مِنْ بَيْنَيْنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّنَا غَافِلُونَ ﴾ (٢٦) .

٢٤ — رواه أحمد في المسند ، انظر الفتح الرباني مع بلوغ الأمان من أسرار الفتح الرباني ، لمؤلفه الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا : ١٨ / ٢٧٤ ، باب وأن هذا صراطي مستقيماً . قال محقق الطبري : صحيح الإسناد . وقد فصل ابن كثير في تفسيره شرح هذا الإسناد ، ومافيه من اختلاف الرواية ٣ / ٤٢٧ . انظر تفسير الطبري : ١٢ / ٢٣٠ ، الأثر رقم ١٤١٦٨ .

٢٦ — سورة فصلت ، الآية : ٥ . أكنة : جمع كنان وهو الغطاء . وقر : ضم ، وأصل الوقر : الثقل .

ومعنى الآية أوسع وأشمل مما ذكره من قُدِّرَ لي أن أطلع على أقوالهم من المفسرين ... فلقد كان قوم مدين لا يفقهون حقاً مايقوله لهم نبيهم . وهنا قد يسأل سائل :

كيف لا يفهم قوم شعيب بأن السرقة ، والإفساد في الأرض ، وبخس الناس حقوقهم مخالفة للفطرة مستقبحة أشد الاستقباح ؟!

وجوابنا على ذلك : يستنكر هذه الأعمال ويستقبحها من شرح الله صدره بالإسلام ، وذاق حلاوة الإيمان .. أما الكافرون والمنافقون والمصريون على معاصيهم من المسلمين ، فلهم من هذه المسألة موقف آخر ، فبعضهم يسمي الأمور بغير مسمياتها ، فالسرقة ، وبخس الناس حقوقهم يسمونها : اشتراكية ، وتأميماً ، وفوائد ربوية ، وضرائب باهظة يرفعون نسبتها من حين لآخر كيفما يشاءون ، وبعضهم الآخر يسمي السرقة : « حذقة » و « مهارة » ، ولا يخجل هؤلاء الغشاشون والمحتكرون عندما يكتشف الناس أساليبهم القبيحة ، وأكاذيبهم المزعجة ويقولون بكل صفاقة :

هذه سياسة ومهارة وأنتم تسمونها سرقة وغشاً واحتكاراً !!

ونوضح المسألة بالمثال الآتي : فالمسلم عندما تزل قدمه ويُضَلُّه رفقاء السوء فيسرق أول مرة يندم ، ويؤنبه ضميره فلا ينام الليل ، ويخشى أن يظهر أمره بين أهله وأصدقائه ... ثم يخف الندم عندما يسرق للمرة الثانية ، ويتحدث شركاؤه عن بطولته المزعومة ورباطة جأشه .. ثم تصبح السرقة مهنة في حياته كالنجارة والزراعة والتجارة .. بل ويحاول إقناع الآخرين بامتهان هذه المهنة ، ومن وسائل الإقناع التي يعرضها قوله لأحد أقربائه أو أصدقائه من أصحاب الخلق والاستقامة : في عملية واحدة تستمر بضع ساعات يكون في جيبى مايمكن أن تجنيه من عملك خلال عام أو عدة أعوام . وقل مثل ذلك في بقية الغشاشين والمحتكرين وغيرهم وغيرهم .

قال عليه السلام : « إن العبد إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب ونزع صقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه » ، وفي رواية « حتى تغلف

قلبه فذلك الران الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٢٧) .

فإذا قال نبي من أنبياء الله تعالى أو داعية مصلح لهذه النماذج من الناس : اتقوا الله ولا تفسدوا في الأرض ، قالوا : [مانفقه كثيراً مما تقول] ، وكأنه يقول لهم : تخلوا عن أعمالكم ووظائفكم وتجارتكم التي يرون بأنها مشروعة ولا حياة لهم بدونها .

وعن أمثال هؤلاء قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٢٨) .

ويعجز القلم عن الإحاطة بمعاني هذه الآية وأبعادها ، وغريب أمر هذه الجبلات البشرية التي لاتنفع بما رزقها الله جلّ وعلا من جوارح ، فقلوبهم مقفلة مغلقة ، وآذانهم صماء لاتسمع حقاً .. ولا تبصر عيونهم النور وآيات الله في خلقه ... ﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ ﴾ أولئك كالبحر والغنم والإبل لأنهم عطّلوا الأجهزة التي تميزهم عن الأنعام ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ لأن الدواب قد تستجيب لراعيها وإن لم تفقه كلامه — بخلاف هؤلاء — ولأنها تفعل ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك به . ﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ ﴾ ولو اخترعوا أحدث الاختراعات وأدقها .

﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ ﴾ ولو ملكوا الأساطيل والجيوش ، والمال وبسطوا نفوذهم على سكان المعمورة كلها .

﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ ﴾ ولو حصلوا على الشهادات العالية وأشادوا المعاهد والجامعات . قال تعالى عن المنافقين : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مِنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا ، وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ

٢٧ — أخرجه الترمذي : ٥ / ٤٣٤ ، وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجه : ٢ / ١٤١٨ ، وحسنه الألباني : الجامع الصحيح : ١٦٦٦ ، والآية في سورة المطففين : ١٤ .

وعن الكافرين قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣٠) . وقال : ﴿ صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٣١) . وقال : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٣٢) . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ (٣٣) .

ولهذا فقد كان أهل مدين لا يفقهون قول نبيهم ، وكان الكفار والمنافقون لا يفقهون ولا يتعظون ... وهذه أحوالهم في القديم والحديث ... ولهذا وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم كالبحر والأغنام والإبل ، قد يفقهون أمور دنياهم ومعاشهم ، لكنهم لا يفقهون أمور آخرتهم ومعادهم . قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (٣٤) .

وإذا كانت هذه هي حال أرباب المال والنهي والسلطان الذين أضلهم الله وطمس على بصيرتهم ، فكيف تكون حال خدمهم وعمالهم !؟

من يدرس أحوال خدمهم وعمالهم ، ويسبر غورهم ، يعلم أنه ليس هناك أتعس ولا أتفه من الذين ينافقون للذين هم أحط من البقر والغنم والإبل ، وقد يغضب الذين يحرصون على تهذيب اللفظ ورقته مما نكتب فنقول لهم : أنتم مسلمون وهذا وصف الله لهم ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ ، واقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ مثل الذين حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ

٢٩ — سورة المنافقون ، الآية : ٧ .

٣٠ — سورة البقرة ، الآيتان : ٦ و ٧ .

٣١ — سورة البقرة ، الآية : ١٨ .

٣٢ — سورة الحج ، الآية : ٤٦ .

٣٣ — سورة الأحقاف ، الآية : ٢٦ .

٣٤ — سورة الروم ، الآية : ٧ .

يحملوها كمثّل الحمار يحمل أسفاراً ﴿٣٥﴾ ، فتأدّبوا ياهؤلاء بأدب القرآن الكريم .

نعود إلى القول : ليس هناك أتفه من الذين يوالون ويخدمون الذين هم أحط وأضل من البقر ، فتراهم يكتبون دفاعاً عنهم ، ويتحدثون عن مآثرهم النبيلة [على حد قولهم] ، ويزعمون إعجابهم بمواقفهم ، وينفذون أوامرهم ، ويفكرون بعقول أسيادهم ، وويل لمن كان سادته من البقر ، ولست أدري كيف يعيش هؤلاء في تناقضات وإحراجات من أجل مطامع دنيوية رخيصة؟! والأنكى من ذلك كله أن بعض هؤلاء الخدم والعمال من أشباه الدعاة وما أكثرهم في هذا العصر !!

وسوف نمضي بعد هذا الاستطراد في عرض ردود أهل مدين على نبي الله شعيب عليه السلام . قال تعالى :

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ، وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٣٦) .

﴿ إنما أنت من المسحّرين ﴾ : أي ممن قد سُحِرَ مرة بعد مرة ، وقال ابن جرير الطبري : « والصواب من القول في ذلك عندي أن معناه : إنما أنت من المخلوقين الذين يعلّلون بالطعام والشراب مثلنا ، ولست رباً ولا ملكاً فتطيعك ونعلم أنك صادق فيما تقول ، قال : والمسحّر : المفعّل من السحرة ، وهو الذي له سحرة » (٣٧) .

ولم يكن شعيب ساحراً أو مسحوراً ، وقومه يعرفون تاريخه ، ويعرفون صدقه وفضله واستقامته ، لكنهم يتهربون من مواجهة الحقيقة الجلية البينة بمثل هذه الادعاءات المتهافّة .

٣٥ — سورة الجمعة ، الآية : ٥ .

٣٦ — سورة الشعراء ، الآيتان : ١٨٥ ، ١٨٦ .

٣٧ — تفسير الطبري ١١ / ١٠٩ .

خامساً - فصل الدين عن السياسة

قال تعالى :

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (٣٨) .

الاستفهام في قوله تعالى ﴿ أَصْلَوَاتُكَ ﴾ للانكار عليه والاستهزاء به ، وكان شعيب عليه السلام كثير الصلاة ، وكانت هذه الصلاة أهم أثر عملي تطبيقي لدين شعيب ، وكانوا من فرط سفههم يظنون أن هذه الصلاة من نتائج الوسوسة وأفاعيل المجانين . ولهذا كانوا يقولون لنبيهم : ما علاقة صلاتك بديننا وعقائدنا التي ورثناها عن آبائنا جيلاً بعد جيل ؟! وما علاقة صلاتك بأموالنا وتجارتنا التي من حقنا أن نفعل فيها ما نشاء من تطفيف ومكوس ؟!

﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ : قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية .

وهذه الآية تذكرنا بما قلناه في الصفحات الماضية عند تفسيرنا لقوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُول ﴾ ، فأهل مدين يستغربون دعوة نبيهم لأنه — كما يرون — يتدخل بأمور ليس من حقه أن يتدخل بها . إنه فرد من عامة الناس ، وهم أهل الحل والعقد في بلدهم .. فكيف يجرؤ فرد من العامة على تسفيه دين قومه ، والخروج على عقائد وتقاليد الآباء والأجداد والتنديد بها ... ومهما أحسنوا الظن به ، ومهما صبروا على تحدياته فلن يغفروا له إصراره على وجوب تغيير نظام حياتهم ... فليصل ما شاء ، وليعبد ربه بالطريقة التي يريد ، ولكن عليه أن يتجنب خلط الدين بالسياسة .

وبعد أن تيسرت للبشرية أسباب المعرفة ، واندثرت عصور الجهل والهمجية والتخلف مع ذلك لازلنا نسمع أصواتاً محمومة تنادي بفصل الدين

عن السياسة ، فبالأمس وقف فرعون الصغير الذي أهلكه الله تعالى ... وقف
عدو الله في احتفال حاشد وقال فيه : إنه لاسياسة في الدين ولا دين في
السياسة ، ولن أسمح لرجال الدين أن يتدخلوا في السياسة ... وكانت الاذاعات
العالمية ووكالات الأنباء تنقل أقوال هذا الطاغية المتجبر المفسد في الأرض .

ولم يكن صوت فرعون نشازاً فكثير من فراعنة عصرنا قالوا مثل قوله
وأشد ، وبعضهم يقول متلطفاً : نحن مسلمون ، وحرية الاعتقاد مصونة في
دستورنا ، ونهتم ببناء المساجد ورعايتها ، ولا نمنع أحداً من الصلاة والصوم
والحج .. ولكننا لانسمح ولن نسمح لرجال الدين أن يتدخلوا بشؤون الحكم
والسياسة . والسؤال الذي يفرض نفسه هنا : هل صحيح بأن المسلمين في
مختلف بلدان العالم الإسلامي أحرار في مساجدهم ؟! سوف نؤخر الجواب
على هذا السؤال قليلاً .

وفصل الدين عن السياسة لم يكن له وجود في جميع مراحل تاريخنا
الإسلامي ، وكل مسلم يعلم بالضرورة بأن الإسلام قد حرّم الربا وأوجب إقامة
الحدود ، كما يعلم بالضرورة وجوب تنصيب خليفة للمسلمين ، ويقرأ الأحاديث
والآيات التي تنص على ذلك أو يسمع من يقرأها إن كان أمياً .. والاستعمار
هو الذي بدأ بترويج هذه الأفكار المسمومة منذ أقل من قرن ، ثم نهض بهذه
الدعوة أفراد قلائل من الذين ابتلى بهم الأزهر أمثال الشيخ علي عبد الرزاق الذي
أنكر الخلافة والحكم في كتابه « الإسلام وأصول الحكم » .. ثم بدأت تنتشر
أفكار دعاة العلمانية الذين تخرجوا من الجامعات والمعاهد الأوربية ، ومما ساعد
على انتشارها انقلابات أتاتورك وأشباه أتاتورك في عالمنا الإسلامي المنكوب .
ولهذا فلقد أصبح من السهل أن يرفع من شاء رأسه قائلاً : ماعلاقة الدين بالحكم
والسياسة ، وهؤلاء الذين يحشرون السياسة بالإسلام ليسوا أكثر من طلاب
حكم ، ومن أجل ذلك يغرون بالشباب ويوردونهم موارد الهلاك ؟!

وما علاقة الدين بلباس المرأة وحجابها وعملها وتعليمها .. هل يريد هؤلاء
المتزمتون أن يعودوا بالبشرية إلى عصور الانحطاط والتخلف ؟!

وماعلاقة الدين بالبنوك والمصارف وسائر المؤسسات الاقتصادية ،
وماالفرق بين بنوكهم الإسلامية التي ابتدعوها وغيرها من البنوك ، ولماذا يتاجرون
بالدين ويتخذون منه سلاحاً ضد خصومهم ومنافسيهم ؟!

وماعلاقة الدين بالسياحة والاصطياف ؟! وماعلاقة الدين بالخمرة وأين
يذهب الناس بكميات العنب الهائلة التي تنتجها الأرض ؟!

ولو قلت لهم أي شيء لقالوا لك ماعلاقة الدين به ؟! ولو حاولت أن تقنعهم
بأن الإسلام دين شامل يشمل الصلاة والصوم والحج والزكاة ، كما يشمل
الحكم والسياسة والاقتصاد ، وينظم شؤون الفرد والمجتمع ، والله جلّ وعلا
حرّم الخمر والميسر كما حرّم الاختلاط والتهتك والفجور ... لو حاولت ذلك ،
وذكرت لهم عشرات الأدلة القطعية من الكتاب والسنة وإجماع الأمة لقالوا لك :

هذا فهمك وفهم أمثالك من الذين يريدون [تسييس] الدين وتطويعه لمصالحهم
وأطماعهم .. وعلى كل حال فلست أكثر فهماً من الشيخ علي عبد الرزاق ،
أو الشيخ فلان وفلان ... وقد قالوا في هذه المسائل غير ماتقول . وخلاف
هؤلاء ليس مع هذه الجماعة أو تلك ، أو مع هذا الداعية أو ذاك .. إن خلافهم
مع الإسلام لأنهم علمانيون زنادقة ، ولا يستطيعون أن يتكلموا بكل وضوح
وصراحة ، ولهذا تراهم يراوغون ويتناقضون ، ويهاجمهون الجماعات والأفراد
وهم يريدون من وراء ذلك التشكيك بالعقائد الإسلامية ، كما يريدون نشر
مذاهبهم الفاسدة ، ومن تناقضاتهم : نقدهم للدعاة العلماء لأنهم يخوضون في
قضايا لا علم لهم بها ، وليست من الدين [وهذا ليس صحيحاً] ... ومع ذلك
فالعلمانيون يخوضون في أصول الإسلام وفروعه من غير علم ولا معرفة ، ولا
يقبلون تصحيح مايقعون به من أخطاء فادحة .

ومن تناقضاتهم أيضاً زعمهم بأن الناس أحرار في مساجدهم .. والأدلة
تؤكد خلاف ذلك ، فالنصارى واليهود والكفار أحرار في كنائسهم ومعابدهم
ومراكز أحزابهم وجمعياتهم ، أما المسلمون في مساجدهم وعبادتهم فليسوا
كذلك ، ويحرمون من الوعاظ والخطباء الصادقين لأنهم لا ينافقون ولا يداهنون ،

ويفرض عليهم أنصاف المتعلمين لأنهم يوالون الطغاة وينفذون أوامرهم .. أما الزكاة فكم من محسن نُكِبَ وصودرت أمواله لأنه دفع الزكاة لأسر فقيرة جائعة والطواغيت تريد تجويعها بسبب مواقف وقفها أرباب هذه الأسر ضد الطغاة ولا يكتفون بسجنهم أو قتلهم ، بل يريدون أن يموتوا جوعاً .

إن قوم مدين رغم ماكانوا عليه من كفر وخبث أكثر حياءً وأرجح عقلاً من العلمانيين الطغاة الذين ابتلانا الله بهم فيما يسمونه عصر الحضارة والتقدم .

سأذكركم - ولولا رهطك لرجمناك

قال تعالى :

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أُعِزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخِذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَّ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٣٩) .

- ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ ﴾ : سبق تفسيرها .
- ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً ﴾ : أي لاقوة لك ولا عز فيما بيننا ، وليس لك جند وأعوان تقدر بها على مخالفتنا .
- ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ : الرهط لغة : من الثلاثة إلى العشرة ، وقيل إلى السبعة ، وقال أبو جعفر : ولولا أنك في عشيرتك وقومك لرجمناك : أي لقتلناك رمياً بالحجارة .
- ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ : مانت من يكرم علينا ، فيعظم علينا إذلاله وهوانه ، ولن تقدر على قهرنا وهزيمتنا .
- ﴿ وَاتَّخِذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَّ ﴾ : أي اتخذتم ما جئكم به من أمر الله ظهرياً ؛ أي جعلتموه وراء ظهوركم ، ونبذتم أمره جلّ وعلا .

وهنا يعلمنا شعيب عليه السلام درساً لاتنساه الأجيال المؤمنة بالله ورسله ... نبي أعزل لا يملك جيشاً ولا حرساً يدافعون عنه ، ومع ذلك تراه يواجه قومه بانحرافاتهم ، ويهاجم أعرافهم وقوانينهم ، ويطالب بتغيير نظام حياتهم ... وتحتدم المعركة بينه وبينهم ، ويتناقل الناس داخل مدين وخارجها أخبار شعيب مع قومه ، ويخشى المشركون من خطر مؤكد تزداد آثاره يوماً بعد آخر ، ويتطلعون إلى قتل هذا المتمرّد المشاغب — كما كانوا يرون — ليرتاحوا منه ، ويطفئوا نيران المعركة التي أججها .. ولكنهم يتراجعون احتراماً وتقديراً لذويهِ وعشيرته الذين لم يغيروا دينهم ولم يتبعوه .. ويمر نبي الله بموقف فيه كثير من الحرج ، فهو يعلم أنه لم يرحم بسبب عشيرته ﴿ ولولا رهطك لرجمناك ﴾ ، والاستفادة من الأقرباء وارد في سير أنبياء الله ورسله وفي سير من تبعهم من المصلحين والمجددين ... ومن منا لا يعلم دور بني هاشم وفي طليعتهم أبي طالب في نصرة خاتم الأنبياء ﷺ ؟! . لقد دافعوا عنه ، ورفضوا تسليمه مع أنهم كانوا مشركين ودافع كثير من المشركين في مكة عن أقربائهم الذين أسلموا من أصحاب رسول الله وأجاروهم ، ومن أشهر هؤلاء المشركين المطعم بن عدي .

وعهدنا بالناس يفرحون إذا وجدوا من ينقذهم من هلاك محقق ، بل وبعضهم يتفاخرون بأقربائهم وعشيرتهم إذا هابهم الناس من أجلهم ، ولو كانوا سفهاء مشركين ، أما نبي الله شعيب عليه السلام فقد أراد أن يفهم قومه وغير قومه في عصره وفي كل عصر بأنه ليس من الذين يحرصون على الحياة الدنيا ، وليس من الذين يخشون الموت إذا كان الموت في سبيل الله جلّ وعلا ، والموت عند أنبياء الله ومن سار على نهجهم أمنية إذا كان من ورائه هداية الناس ... ولهذا صرخ شعيب عليه السلام في وجه قومه بكل حزم وقوة : ﴿ أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربي بما تعملون محيط ﴾ .

— يا قوم فكروا بعقولكم ، اتعظوا بمن سبقكم من الأمم الذين أهلكهم الله بسبب شركهم وفسادهم وظلمهم ، زنوا الأمور بميزان الحق والعدل والإنصاف .

— يا قوم : كيف تحترمون وتجلون رهطي وهم قلة ولا يملكون لكم نفعاً ولا ضرراً ، ولا تحترمون وتجلون رب العزة الذي خلقكم من سلالة من طين . قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ (٤٠) .

— يا قوم : إن الأمر أكبر من مدين وماحولها ، فلا تقيدوا أنفسكم ضمن بقعة جغرافية ضيقة محدودة ، وفي زمن لا يساوي شيئاً أمام عمر الأرض ، وعمر الأرض لا يساوي شيئاً أمام الحياة الأبدية الخالدة في النار أو الجنة !؟

— يا قوم : أريد لكم الهداية والاستقامة في دينكم ودنياكم .. وأنتم تمنون علي أنكم تراجعتم عن رجمي إرضاء لرهطي !؟ .. ثم تقولون بعد ذلك ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفاً ﴾ .

تباً لكم .. تباً لهذه العقول الجامدة البليدة ، والله لا أقبل الدنية في ديني ، وأنا بريء منكم ومن رهطي .. ولا أعتز إلا بالله الواحد القهار الذي هداني وأرسلني إليكم شاهداً ومبشراً ونذيراً .. إن ربي أيها الحمقى أعز وأقوى منكم ومن رهطي ومن جميع خلقه ، وإذا أراد لي الحياة فلن تستطيعوا رجمي ولا أقل من ذلك ، وهو الذي يمتني إذا شاء والخير فيما يختاره الله لنا ، وأنتم الفقراء إليه جلّ وعلا . قال تعالى :

﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤١) .

فمالكُم والعزة ، إن العزة لله جميعاً وهو رب العزة ، وكل مؤمن به عزيز وإن

٤٠ — سورة المؤمنين ، الآيات : ١٢ إلى ١٥ .

٤١ — سورة [المنافقين] ، الآية : ٨ .

أطبق عليه أهل الأرض وكادوا له ، ولكن المشركين لا يفقهون ولا يعلمون .
وهكذا يضرب لنا شعيب عليه السلام أروع الأمثلة وأجلها في التضحية
والفداء وفي مقاومة الظلم والطغيان ... ولو كان في أمتنا اليوم بضع مئات من
العلماء الدعاة يفهمون واقعهم كما فهمه شعيب عليه السلام لتغير وجه الأرض
وجاءنا نصر الله جلّ وعلا .

سابعاً - التهديد بالنفي

قال تعالى :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ، قَدْ افْتَرَيْنَا
عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ
لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى
اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ
الْفَاتِحِينَ ﴾ (٤٢) .

— ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ : سبق الحديث عن الملأ في الجزء
الأول [ص ٥٩] ، واستكبروا : أي تكبروا عن الإيمان بالله ، واستضعفوا نبهم .
— ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ :
هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعبياً ومن معه من المؤمنين
في توعدهم إياه ومن معه من المؤمنين بالنفي عن القرية أو الإكراه على الرجوع
في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه (٤٣) . والملة : الديانة التي يجمع على
العمل بها فرقة عظيمة . والأصل فيه تكرار الأمر من قولهم : طريق ممل ومليل ،
إذا تكرر سلوكه حتى صار معلماً .

٤٢ — سور الأعراف ، الآيتان : ٨٨ — ٨٩ .

٤٣ — تفسير ابن كثير ٢ / ٢٣٢ ، الحلبي .

وقوله تعالى ﴿ أو لتعودن في ملتنا ﴾ : قال كثير من المفسرين بأن هذا القول جارٍ على ظنهم أنه كان في ملتهم ، لسكوته قبل البعثة على الإنكار عليهم . وقال بعضهم : إن الكلام من باب التغليب . قال الزمخشري : « لما قالوا ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك ﴾ فعطفوا على ضميره ، الذين دخلوا في الإيمان منهم بعد كفرهم ، قالوا ﴿ لتعودن ﴾ فغلبوا الجماعة على الواحد ، فجعلوهم عائدین جميعاً ، إجراءً للكلام على حكم التغليب . وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال ﴿ إن عدنا في ملتكم بعد إن نجانا الله منها ﴾ وهو يريد عودة قومه ، إلا أنه نظم نفسه في جملتهم ، وإن كان بريئاً من ذلك ، إجراءً لكلامه على حكم التغليب « ... ومما ينبغي التأكيد عليه أن شعيباً عليه السلام لم يكن قبل النبوة يعتقد ويدين بما يعتقد ويدين به قومه لأن أهل السنة أجمعوا على عصمة أنبياء الله من الكفر قبل النبوة وبعدها .

— وقوله تعالى ﴿ أولو كنا كارهين ﴾ أي : أتجبروننا على ذلك ، وإن كنا كارهين له ؟ مع أنه لافائدة في الإكراه ، لأن دينكم إن كان حقاً ، لم نكن بالإكراه منقادين له ، وإن كان باطلاً لم نكن بالإكراه متصفين به . والاستفهام في قوله ﴿ أولو ﴾ للتعجب من صنعهم واستنكار طلبهم ورفضه بدون مبالاة ، ووجه كل من الإنكار والتعجب جهل هؤلاء الملاء بكنه الدين الجديد الذي بدأ ينتشر بينهم ، وبسبب هذا ظنوا أن شعيباً عليه السلام قد يؤثر هو ومن آمن معه التمتع بالإقامة في وطنه ومجاراة أهله في كفرهم وردائهم على مرضاة الله تعالى بالتوحيد المطهر للنفس من أدران الشرك والخرافات ، وهم يظنون بنبيهم ومن آمن معه كما يظنون بأنفسهم ، وهم أصحاب أهواء وشهوات ومن أهم ما يدينون به عبادة الآباء والأجداد ، وتقديس الأوطان .

وفاتهم أن دين الرسل لا يقدم عليه وطن ولا قوم ولا مال ولا نفس وأهل وولد ، ولهذا هاجر إبراهيم الخليل عليه السلام وقال : ﴿ إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم ﴾ (٤٤) ، وهاجر خاتم النبيين مع السابقين الأولين صلى

٤٤ — سورة العنكبوت ، الآية : ٢٦ ، وانظر الجزء الأول ، هجرة إبراهيم عليه السلام ، ص ١٣٠

الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ... » ولهذا أوجب الله تعالى الهجرة على من يستضعف في أرض وطنه فيمنع من إقامة دينه فيها .. ورُبَّ أناس عز عليهم ترك وطنهم ، فأثروا البقاء فيه مفتونين في دينهم ، فأظهروا الكفر ليأمنوا على حياتهم ، وظلوا يسرون المحافظة على الإسلام في خاصة أنفسهم ، ولكنهم لم يتمكنوا من تلقينه لأولادهم وتربيتهم عليه فارتدت ذريتهم عنه في زمنهم أو من بعدهم ، كما وقع لبعض مسلمي الأندلس بعد ثل الأسبانيين لعرش دولتهم العربية وإكراههم على التنصر أو الخروج من البلاد فخرج بعض وبقي آخرون تحت وعيد قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ؟ فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ، إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ، فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غَفُورًا ﴾ (٤٥) .

وهنا درس جدير بالاهتمام ، فالطغاة قد يتركون الدعاة وشأنهم حيناً من الزمن لأن دعوتهم لا تشكل خطراً عليهم ، أو لأنهم يريدون تجميع معلومات أكثر عنهم ... وتركهم أحراراً يساعد على تجميع مثل هذه المعلومات ، أو بسبب ضغط القبيلة أو الجمهور ، أو لأنهم يحبون أن يتظاهروا بأنهم [ديمقراطيون] متسامحون مع شعوبهم ... فإذا التفت الجمهور حول الدعاة وشعر الطغاة بأن الأرض تميد من تحت أقدامهم ، وأن [لعبتهم] قد تجاوزت الحد الذي رسموه ، في هذه الحالة يخلعون القناع الديمقراطي الزائف ، ويتخلون عن أسطورة حكم الشعب بالشعب وللشعب ، ويسفرون عن وجوههم الكالحة ، وقلوبهم الحاقدة ، ويستنفرون جميع أجهزتهم الأمنية منها والإعلامية ضد الأبرياء الأتقياء الذين لم يقترفوا إثماً ، أو يرتكبوا جريمة ، ولا يعرف الناس عنهم إلا الخير والعلم والفضل ... فكم نتمنى أن يفهم سبيل المجرمين أولئك

الذين يسبحون في بحر من الخيال ، ويزعمون بأن [البرلمانات] أهم وسيلة لخدمة الدعوة الإسلامية ، كم نتمنى أن يتعظوا من تجارب مؤسفة لمن سبقهم من الدعاة دامت حوالي نصف قرن .

وإذا كان لابد من عقد مقارنة بين طواغيت عصرنا والملا من أهل مدين ، نقول : ليت طواغيت عصرنا يهددون الدعاة بإخراجهم من أرضهم وديارهم ... ليتهم يقبلون بما قبل به قوم شعيب ... ليتهم يعمدون إلى توجيه الإنذارات والتهديدات للآمنين قبل البطش بهم ... لو فعلوا ذلك لما وجدنا شعباً بأسره يئن تحت وطأة القرامطة وأشباههم .

ثامناً - اعملوا على مكانتكم إنك عامل

كانت المرحلة الأولى في دعوة شعيب عليه السلام هادئة ، فلقد واجه قومه منذ البداية بانحرافاتهم ، وقدم لهم الحلول الجذرية التي تنفعهم في دينهم ودنياهم ، لكنهم لم يأبهوا لقوله ، ولم يشعروا بخطورة مايدعو إليه ، وكان من أهم ردودهم عليه :

﴿ إنما أنت من المسحرين ﴾ .

﴿ وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ .

﴿ أصلواتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا مانشاء إنك لانت الحليم الرشيد ﴾ .

وبقيت الأمور في هذه الحدود : نبي مهذب صالح لاينطق إلا بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكفار سفهاء لايتورعون عن الكذب والبهتان والسخرية .

وعندما علموا بأن القضية جد وأن زعامتهم مهددة انتقلوا معه عليه السلام إلى مرحلة أخرى أخذوا يتحدثون فيها عن العنف والإرهاب ، وراحوا يهددون نبي الله والذين آمنوا معه بالرجم والنفي والقتل ، وظنوا أنهم سوف يعودون إلى دين قومهم وتهداً العاصفة ، ويتلاشى الخطر . وكان شعيب عليه السلام

يعلم بأن قومه لا يمزحون ، وسوف ينفذون تهديدهم عند الضرورة ، ورغم ذلك فقد خيب ظنهم عندما قال لهم :

﴿ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (٤٦) .

لا : — لن نعود إلى ملة الظلم والبخس والصد عن سبيل الله .

— لن نعود إلى ملة الذين ييغونها عوجاً في الأرض .

— لن نعود إلى ملة الملأ الذين يعبدون شهواتهم ومصالحهم .

— لن نعود بعد أن هدانا الله جلّ وعلا إلى صراطه المستقيم ، وسوف نمضي في تبليغ دعوتنا ، وإليه وحده جلّ وعلا وكلنا أمرنا ، فهو يكفيننا أمر تهديدكم ، وكل مالم يجعله في استطاعتنا من جهادكم : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ (٤٧) ، ولن نقصر في القيام بكل ما أوجبه الله علينا من الأحكام الشرعية ومن الأخذ بالأسباب .

﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ : ربنا احكم وافصل بيننا وبين قومنا بالحق الذي مضت به سنتك في التنازع بين المرسلين والكافرين ، وبين سائر المحققين المصلحين ، والمبطلين المفسدين في الأرض ، وأنت خير الحاكمين ، لإحاطة علمك بما يقع به التخاصم ، ونزھك عن الظلم ، واتباع الهوى في الحكم (٤٨) .

لقد قلت غير مرة أن شعباً عليه السلام كان لطيفاً مع قومه غاية اللطف ، يخوفهم بالله ، ويذكرهم بما أصاب الأمم الأخرى من هلاك ودمار نتيجة كفرهم

٤٦ — سورة الأعراف ، الآية : ٨٩ ، وشعب عليه السلام لم يدين بما كان يدين به قومه ، انظر التهديد بالنفي ، ص ١٠٨ .

٤٧ — سورة الطلاق ، الآية : ٣ .

٤٨ — انظر تفسير المنار : ٩ / ٩ .

وعنادهم وصدهم عن سبيل الله ، وكان يقول لهم :

لا تحملنكم عداوتي على اتخاذ موقف ستندمون عليه في يوم لا ينفعكم به الندم ... يا قوم : إنها النبوة ... إنه الوحي ... إنه أمر الله جلّ وعلا ، فليست القضية بيني وبينكم خلافاً على زعامة مدين أو على أي عرض من أعراض هذه الدنيا الفانية .

وعندما أصروا على كفرهم وعتوا واستكبروا استكباراً ، أصر شعيب ومن آمن برسالته على الحق الذي ارتضوه ، وأعلنوا بكل ثقة وحزم أنهم لن يتراجعوا أو يتنكبوا هذا الطريق ، ومما قاله لهم في هذه المرحلة :

﴿ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ﴾ .
﴿ قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربي بما تعملون محيط ﴾ .

﴿ ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعملون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارقبوا إني معكم رقيب ﴾ .

وهاهنا انتهى الحوار ، ولم يعد يجدي مع أهل مدين نصيح ولا إرشاد ، واستفرغ نبي الله وسعه ، وبذل أقصى ما وهبه الله جلّ وعلا من جهد و طاقة ، ولم يستجب له إلا نفر قليل من قومه ، ومن سنن الله في خلقه هلاك الكافرين الظالمين إذا كذبوا أنبياءهم وأعرضوا عنهم وسخروا منهم . قال تعالى : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴾ (٤٩) أي أهلك الله قوم هود ، وصالح ، ولوط بعدما ظلموا ، وجعل لإهلاكهم وقتاً محدداً .

وقال تعالى : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلاً ﴾ (٥٠) .

٤٩ - سورة الكهف ، الآية : ٥٩ .

٥٠ - سورة الكهف ، الآية : ٥٥ .

﴿ سنة الأولين ﴾ : أي عذاب الأمم السالفة .

وقال :

﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ (٥١) .

قال المفسرون : ﴿ من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ أي في هذه الحياة الدنيا .

﴿ ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ : أي في الآخرة .



الفصل الرابع

مصارع الطغاة

- أولاً — ألا بعداً لمدين .
- ثانياً — هلاك الأمم وأسبابه .
- ثالثاً — مترفون معاصرون شهدت نهايتهم .

أولاً .. ألا بهذا لمطمين

أهلك الله أهل مدين في يومهم الموعود ، والله لا يخلف الميعاد .. أما كيفية هذا الهلاك فقد أخبرنا جلّ وعلا في سورة الأعراف أنه كان بالرجفة ، وذكر في سورة هود أنهم أخذتهم الصيحة ، وفي سورة الشعراء ذكر أنهم أخذهم عذاب يوم الظلة ، وجمع العلامة التحرير والمحقق البارع ابن كثير بين هذه الآيات فقال :

« قال تعالى : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ ذكر في سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفة ، أي رجفت بهم أرضهم ، وزلزلت زلزالاً شديداً أزهقت أرواحهم من أجسادهم ، وصيرت حيوان أرضهم كجمادها ، وأصبحت جثثهم جاثية ؛ لا أرواح فيها ولا حركات بها ، ولا حواس لها .

وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات ، وصنوفاً من المثلات ، وأشكالاً من البليّات ، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات ، سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات ، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات ، وظلّة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات .

ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها ؛ في سياق قصة الأعراف أرجفوا نبيّ الله وأصحابه ، وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم ، أو ليعودن في ملتهم راجعين . قال تعالى : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ فقابل الإرجاف بالرجفة ، والإخافة بالخيفة ، وهذا مناسب لهذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السياق .

وأما في سورة هود : فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص : ﴿ أَصْلَوَاتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح ، الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح فجاءتهم

صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكتتهم .

وأما في سورة الشعراء : فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة ، وكان ذلك إجابة لما طلبوا ، وتقريباً إلى ما إليه رغبوا ، فإنهم قالوا : ﴿ إنما أنت من المسحّرين ، وما أنت إلا بشرٌ مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ، فأسقط علينا كِسَفاً ^(١) من السماء إن كنت من الصادقين ، قال ربّي أعلم بما تعملون ﴾ . قال الله تعالى وهو السميع العليم : ﴿ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ . ذكروا أنهم أصابهم حر شديد ، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام ، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل ، ولا دخولهم في الأسراب ، فهربوا من محلّتهم إلى البرية ، فأظلمت سحابة ، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها ، فلما تكاملوا فيه أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب ، ورجفت بهم الأرض ، وجاءتهم صيحة من السماء ، فأزهقت الأرواح ، وخربت الأشباح ^(٢) .

قال تعالى :

﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ ، الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَكُونُوا خَاسِرِينَ ﴾ ^(٣) .

— ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ ﴾ : أصبحوا في منازلهم ومدينتهم رماداً جائماً . أي : بعضهم على بعض جثوم . والجثوم للناس والطيور بمنزلة البروك للإبل . أي : إنهم سقط بعضهم على بعض عند نزول العذاب .

﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنُوا فِيهَا ﴾ : الذين كذبوا شعيباً كأن لم يعيشوا

١ — كِسَفاً : قال ابن قتيبة : أي قطعة من السماء ، والظلة : السحابة التي أظلمت [عن زاد المسير ١٤٣ / ٦] .

٢ — البداية والنهاية : المجلد الأول ، ص ١٨٩ . وتاريخ الطبري ١ / ٣٢٧ ، وإسناده لا بأس به ، وابن عساكر في تاريخه ٨ / ق ٣٦ ب نسخة مصورة عن نسخة الظاهرية بدمشق ، وإسناده إلى علقمة حسن .

٣ — سورة الأعراف ، الآيتان : ٩١ و ٩٢ .

في دارهم ، وكأنهم لم يتنعموا فيها ، بل وكأنهم لم ينزلوا فيها .

وهذا شأن الكافرين الظالمين إذا أشرفوا على الهلاك ، ينسون الجاه والمال والنعيم والزعامة بل ويظنون أنه مامر بهم نعيم قط . قال ﷺ :

« يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُصْبَغُ فِي جَهَنَّمَ صَبْغَةً ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ ؟ نَقُولُ : لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَيُصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ صَبْغَةً ، فَيُقَالُ لَهُ : يَا ابْنَ آدَمَ ! هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ ! مَامَرَ بِي بُؤْسٌ قَطُّ ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ » (٤) .

﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شَعْبِيًّا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ : « مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ الْاسْتِنَافُ مِنْ غَيْرِ عَطْفٍ ، فِي الذَّمِّ وَالتَّوْبِيخِ . فَيَقُولُونَ : أَخْوَكَ الَّذِي نَهَبَ مَالَنَا ، أَخْوَكَ الَّذِي كَشَفَ سِتْرَنَا » (٥) .

وكان الملاء يقولون للناس : ﴿ لئن اتبعتم شعبيًّا إنكم إذا لخاسرون ﴾ ، ونبعهم وصدق مقولتهم الغالبية العظمى من أهل مدين لأنهم سلاطين زمانهم ، وأصحاب القرار في بلدهم ، وهم الذين يعطون ويمنعون ، والربح عندهم : كسب دريهمات من المال ، وأمتار من الأرض واغتصاب أموال الناس بالباطل . أما الإيمان بالله جلَّ وعلا وملائكته ورسوله ، واليوم الآخر ... فهذه كلها قضايا لا تستحق التفكير ، لأن شهواتهم تتحكم بعقولهم وتسيرها ، ولهذا فقد رفضوا اتباع شعيب رغبة في الربح وحتى لا تلحق بهم خسارة .

وبعد أن أصبحوا في دارهم جاثمين ، جاءهم الرد الحاسم البليغ من الله جلَّ وعلا ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شَعْبِيًّا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ ومما لاشك فيه أنهم

٤- أخرجه أحمد : ٣ / ٢٥٣ ، وابن ماجه : ٢ / ٥٨٧ . والحديث صحيح ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني : ٣ / ١٥٦ ، الحديث رقم ١١٦٧ ، وصحيح الجامع الصغير ، الحديث رقم ٧٨٧٧ .
٥- محاسن التأويل ، محمد جمال الدين القاسمي ، ص ٢٨٢٢ ، البابي الحلبي .

يتمنون أن يكونوا من الذين اتبعوا شعباً عندما يعرضون على ربهم يوم الحساب ... ولكن هيهات .. وهم بعد هلاكهم يسمعون مخاطبة نبيهم لهم ولكنهم لا يجيبون (٦) .

وقال القاسمي في تفسير الآية الثانية ﴿ الذين كذبوا شعباً كانوا هم الخاسرين ﴾ [هود / ٩٢] :

« استئناف آخر لبيان ابتلائهم بعقوبة قولهم الأخير ، وإعادة الموصول والصلة كما هي ، لزيادة التقرير ، والإيذان بأن ماذكر في حيز الصلة ، هو الذي استوجب العقوبتين . أي الذين كذبوه عليه السلام ، عوقبوا بمقاتلتهم الأخيرة ، فصاروا هم الخاسرين » (٧) ... لقد خسروا أموالهم وأولادهم ونساءهم وديارهم ، وخسروا زعامتهم لمدين وماحولها ، وخسروا — بكفرهم وظلمهم وفسادهم — رحمة ربهم ، وصحبة أنبيائه ورسله في الفردوس .

أجل لقد خسر الذين كذبوا شعباً دنياهم وآخرتهم ، وأحاطت بهم خطيئاتهم ، فهم في جهنم خالدون ... أما شعيب عليه السلام ومن آمن معه فلقد نجاهم الله سبحانه وتعالى من الرجفة التي أهلكت الكافرين من قومهم . قال تعالى : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ ... نجاهم الله تعالى ذكره ، بعد صراع طويل ، وابتلاء عظيم ، وشاهدوا بأعينهم مصارع الظالمين ، واندثار أمة لها تاريخ أسود كالح وكأنهم ماعاشوا ولا حكموا ... فازدادوا إيماناً وثقة بنصر الله وتأيدته ، وأورثهم تعالت أسماؤه وصفاته الأرض يرفعون فيها رايات التوحيد والعدل والمساواة .

— ﴿ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ .

قال أبو جعفر : « يقول تعالى ذكره : فأدبر شعيب عنهم ، شاخصاً من

٦ — انظر منهج الأنبياء ، الجزء الأول ، هلاك ثمود ، ص ٨٧ و ٨٨ .

٧ — محاسن التأويل ، للقاسمي ، ص ٢٨٢١ ، الجزء السابع .

بين أظهرهم حين أتاها عذاب الله ، وقال لما أيقن بنزول نقمة الله بقومه الذين كذبوه ، حزناً عليهم : ﴿ يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ﴾ ، وأدبت إليكم ما بعثني به إليكم ، من تحذيركم غضبة على اقامتكم على الكفر به ، وظلم الناس أشياءهم ﴿ ونصحت لكم ﴾ ، بأمرى إياكم بطاعة الله ، ونهيكم عن معصيته ﴿ فكيف آسى ﴾ ، يقول : فكيف أحزن على قوم جحدوا وحادانية الله وكذبوا رسوله ، وأتوجع لهلاكهم ؟ ﴿ (٨) .

الذين تولى عنهم شعيب عليه السلام : قومه ... قبيلته .. رهطه .. عمومته وأخوانه .. أبناء عمومته وأبناء أخوانه .. وربما كان من بينهم أحد أبناءه أو نسائه أو أبيه أو أمه .. تولى عنهم وخاطبهم كما خاطب من سبقه من أنبياء الله أقوامهم بعد هلاكهم (٩) ، وقال لهم : لقد دعوتكم إلى دين الله ، وتلطفت في دعوتكم ، وصبرت على آذاكم .. لكنكم أعرضتم عن الحق الذي جئتكم به ، وسخرتم من ديني وصلاتي ، وهددتموني بالنفي والتشريد ، وبالقتل والرجم ، وزعمتم أن من حَقكم البُخس والتطفيف والظلم والصد عن سبيل الله ولا يجوز لي ولا لغيري التدخل في أموركم الخاصة وحرمانكم من حقوقكم التي ورثتموها كابراً عن كابر ، وظننتم من جهلكم أن قيادتكم لمدين وما حولها باقية خالدة ، ولم ينفع فيكم الترغيب ولا التهيب ... فكيف أحزن على هلاككم ؟! . كيف أحزن أو أندم وأنا رسول الله إليكم ، وقد علمني ربي بأنه لا مودة ولا محبة بين المؤمنين والكافرين ؟! الحمد لله الذي أهلككم ونجاننا مما أصابكم ..

وقال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ، ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَّوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ

٨ — تفسير الطبري ، ١٢ / ٥٧١ .

٩ — انظر الجزء الأول : ص ٦٧ و ٦٨ و ٨٧ و ٨٨ .

كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ
بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ، أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى
وَهُمْ يَلْعَبُونَ ، أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ،
أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠﴾ .

يقول سيد قطب رحمه الله :

« هذه وقفة في سياق السورة للتعقيب على ماضى من قصص قوم نوح ،
وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ... وقفة لبيان سنة الله
التي جرت بها مشيئته وحققها قدره بالمكذبين في كل قرية — والقرية هي
المدينة الكبيرة أو الحاضرة المركزية — وهي سنة واحدة يأخذ الله بها
المكذبين ؛ ويتشكل بها تاريخ الإنسان في جانب منه أصيل ... أن يأخذ الله
المكذبين بالبأساء والضراء ؛ لعل قلوبهم ترق وتلين وتتجه إلى الله ، وتعرف
حقيقة ألوهيته وحقيقة عبودية البشر لهذه الألوهية القاهرة . فإذا لم يستجيبوا
أخذهم بالنعماء والسراء ، وفتح عليهم الأبواب ، وتركهم ينمون ويكثرون
ويتمتعون .. كل ذلك للابتلاء .. حتى إذا انتهى بهم اليسر والعافية إلى الاستهتار
والترخص ، وإلى الغفلة وقلة المبالاة ، وحسبوا أن الأمور تمضي جزافاً بلا قصد
ولا غاية ، وأن السراء تعقب الضراء من غير حكمة ولا ابتلاء ، وأنه إنما أصابهم
مأصاب آباءهم من قبل لأن الأمور تمضي هكذا بلا تدبر : ﴿ وقالوا قد مس
آباءنا الضراء والسراء ﴾ ! أخذهم الله بغتة ، وهم سادرون في هذه الغفلة .
لم يدركوا حكمة الله في الابتلاء بالضراء والسراء ، ولم يتدبروا حكمته في
تقلب الأمور بالعباد ، ولم يتقوا غضبه على المستهترين الغافلين ، وعاشوا كالأنعام
بل أضل حتى جاءهم بأس الله .. ولو أنهم آمنوا بالله واتقوه لتبدلت الحال ،
ولحلت عليهم البركات ، ولأفاض الله عليهم نعيمه المبارك الذي تطمئن به
الحياة ، ولا يعقبه النكال والبوار ..

ثم يحذر الله الذين يرثون الأرض بعد أهلها .. يحذرهم الغفلة والغرة ،

يدعوهم إلى اليقظة والتقوى ، ويلفتهم إلى العبرة في مصارع الغابرين الذين ورثوا هم الأرض من بعدهم ، فإنما تنتظرهم سنة الله التي لا تبدل ، والتي بنكف بها تاريخ البشر على مدارج القرون .

وتنتهي الوقفة بتوجيه الخطاب إلى الرسول ﷺ : ﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ﴾ لإظهاره على سنة الله فيها ، وعلى حقيقة هذه القرى وأهلها : ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ ... فهذا الرسول الأخير وأمته هم الوارثون لحصيلة رسالة الله كلها ، وهم الذين يفيدون من أنبائها وعظاتها » (١٠) .

ثانياً - هلاك الأمم وأسبابه

— أهلك الله سبحانه وتعالى قوم نوح بالطوفان : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ، فدعا ربّه أني مغلوب فانتصر ، ففتحنا عليه أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قد قدر ﴾ (١١) .

— وأهلك عاداً — قوم هود — بريح صرصر عاتية : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ﴾ (١٢) .

— وأهلك ثموداً — قوم صالح — بالصيحة : ﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكأنوا كهشيم المحتظر ﴾ (١٣) ، وقال : ﴿ فلما جاء أمرنا نجّينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها

١٠ — في ظلال القرآن ، المجلد الثالث ، ص ١٣٣٥ ، دار الشروق .

١١ — سورة القمر ، الآيات : ٩ — ١٢ .

١٢ — سورة الحاقة ، الآيات : ٦ — ٨ .

١٣ — سورة القمر ، الآية : ٣١ .

أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴿١٤﴾ .

— وأهلك جلّ وعلا قوم لوط بحجارة من سجيل : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ، مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَاهِي مِنَ الظَّالِمِينَ يَبْعِدُ ﴾ (١٥) .

— وأهلك قوم شعيب بالصيحة والرجفة وبعذاب يوم الظلة (١٦) .

— وأهلك فرعون وجنوده بالغرق : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاُنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ، وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ، وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ (١٧) .

وخسف الله بقارون وبقاره الأرض : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ (١٨) .

وأهلك بني إسرائيل بالصاعقة : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ (١٩) .

— ومسح تعالت أسماؤه وصفاته ناساً من اليهود : ﴿ قُلْ هَلْ أَنْبَأُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعْنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (٢٠) . وقال : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَآئِهِمَا عَنِ الْقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ (٢١) .

١٤ — سورة هود ، الآيات : ٦٦ و ٦٧ و ٦٨ .

١٥ — سورة هود ، الآيات : ٨١ و ٨٢ و ٨٣ .

١٦ — سبق الحديث عن هلاك قوم شعيب .

١٧ — سورة القصص ، الآيات : ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ .

١٨ — سورة القصص ، الآية : ٨١ .

١٩ — سورة البقرة ، الآية : ٥٥ .

٢٠ — سورة المائدة ، الآية : ٦٠ .

٢١ — سورة الأعراف ، الآية : ١٦٦ .

هذه أحوال أمم وشعوب أهلكهم الله جلّ وعلا بكفرهم وظلمهم وصددهم عن سبيله ... وأية قرية أو دولة أو أمة تنهج نهج هذه الأمم الظالمة ، تكون بعملها الشائن قد عرضت نفسها لعقوبة الله تعالى . قال جلّ من قائل : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (٢٢) . المترفون : هم الجبارون والمسلطون الذين أبطرتهم النعمة وسعة العيش .. والله سبحانه وتعالى يأمر بالعدل والإحسان ولا يأمر بالسوء والفحشاء ، وعندما يخالف الجبارون المترفون أمر الله ، وينشرون في الأرض الفساد ، ولا يجدون من يتصدى لهم فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر نعم العقوبة قريرتهم ويحل بها الدمار الشامل .

وعن قيس بن أبي حازم قال : قام أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « يأيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية : ﴿ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ إلى آخر الآية ، وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : [إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقابه] » (٢٣) .

والشاهد هنا قول رسول الله ﷺ [أوشك أن يعمهم الله بعقابه] ، ويعذب سبحانه وتعالى العامة بعمل الخاصة لأنهم رأوا المنكر بين ظهرائهم وهم قادرون على أن ينكروه فلم يفعلوا ، وسبب هذا التهديد والوعيد القعود عن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحدها ، فكيف يكون الحال إذا عم الظلم ، واحتكم الناس لغير شرع الله ، وأمر أولو النهي والسلطان بالمنكر وجاءت قوانينهم صريحة في ذلك ؟!

والعقاب أو الدمار قد يكون صيحة أو رجفة أو طوفاناً كما أخبرنا جلّ

٢١ — سورة الاسراء ، الآية : ١٧ .

٢٢ — قال ابن كثير : روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة وابن حبان في صحيحه وغيرهم من طرق كثيرة عن جماعة كثيرة عن إسماعيل بن أبي خالد به متصلاً مرفوعاً ، ومنهم من رواه عنه موقوفاً على الصديق ، وقد رجح رفعه الدارقطني : تفسير ابن كثير ٢ / ١٠٩ .

وعلا عن الأمم التي مر ذكرها قبل قليل من هذا البحث ، وقد يكون حرباً عالمية نووية مدمرة .. وتسير البشرية نحو هذه الحرب بخطى حثيثة ، ولا أعتقد بأن سياسة الوفاق الدولي سوف تستمر لأن كلاً من الدولتين العظميين تخططان للسيطرة على العالم ، وتحجيم نفوذ وهيمنة الدولة الأخرى ، وسوف تصل الأمور إلى حد يستحيل فيه وجود وفاق .. ومن غرائب ما نشرته بعض الصحف الغربية في أوائل عام ١٩٨٧ أن الرئيس الأمريكي تقدمت به السن وأصيب بمرض فقدان الذاكرة ، ومرت عليه فترة من الزمن كان يعاني فيها حالة اكتئاب نفسي ، ولهذا قام كبار المسؤولين في البيت الأبيض بسحب مفاتيح تشغيل الأجهزة النووية منه خشية أن يضغط على زر من هذه الأزرار فيكون من وراء ذلك دمار العالم أو معظمه ، فأية مدنية وأية حضارة هذه التي وضعت البشرية كلها تحت تصرف رجل معتوه ؟! (٢٤) ..

وقد يؤدي ارتفاع درجة الحرارة أو انخفاضها إلى هلاك سكان المعمورة .. ففي شتاء عام ١٤٠٧ هـ وصلت درجة الحرارة في كثير من دول أوروبا الغربية إلى ٣٠ درجة مئوية تحت الصفر ، وهلك بسبب ذلك خلق كثير ، ولو ازداد انخفاض درجة الحرارة شهراً أو شهرين لهلك الناس والأنعام والزرع ، والله جل وعلا قادر على ذلك .. ومن تقدير الله أن درجة الحرارة في العام نفسه أي في صيف عام ١٤٠٧ هـ بلغت حوالي [٥٠] درجة مئوية فوق الصفر في كثير من دول منطقة البحر الأبيض المتوسط ، ولهذا فقد هلك كثير من الناس في اليونان وتركيا وإيطاليا لأنهم لم يتعودوا على مثل هذه الأجواء ، ولو ارتفعت درجة الحرارة فوق الخمسين خلال شهر أو شهرين لهلك الناس في هذه المنطقة ، ويستحق هؤلاء وأولئك بذنوبهم وكفرهم وفسادهم مثل هذه العقوبة الربانية ، وجل من قائل :

﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ، أو أمن أهل

القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يعلبون ، أفأمنوا مكر الله فلا يأمن
مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴿ ٢٥ ﴾ .

ومن الأخطار المدمرة التي تهدد أمريكا ودول أوربا الغربية والشرقية
وغيرها تلك الأمراض التي أفرزتها حضارتهم الهابطة كمرض الإيدز وأمراض
انتشار المخدرات بين جميع الطبقات وبشكل أخص بين العسكريين ، والناشئة
من طلاب المدارس ، فخلال أعوام قليلة ستكون جيوشهم عاجزة عن الدفاع
عن أوطانهم ، بله الاعتداء على بلدان العالم الثالث . أما الأسلحة — قديمة أو
حديثة — فلا يمكن أن تؤدي دورها المطلوب إلا إذا كان حملتها رجالاً يقاتلون
من أجل عقيدة يدينون بها ، ويستعدون الموت من أجلها .. أما الناشئة من
الطلبة فعددهم يتناقص لأن الغربيين يكرهون الزواج وما يترتب عليه من نفقة وتربية
الأبناء ورعايتهم ، ورغم تناقص عدد الناشئة فأحوالهم في غاية الفحش
والسوء (٢٦) .

أعاصير تنذر بخطر :

عندما أشرفت على الانتهاء من كتابة هذا الفصل [مصارع الطفافة]
اجتاحت أعاصير شديدة جنوب [انكلترا] ، وكان ذلك بالتحديد بتاريخ ٢٣
صفر عام ١٤٠٨ هـ أي ليلة الجمعة ، وبعد حوالي ساعة انقطع التيار الكهربائي ،
وأصبحت لندن تعيش في ظلام دامس ، والذين كانوا تلك الليلة في لندن يتعجبون
مما حدث ، ويستغربون كيف صمدت المنازل ولم تسقط من هول الأعاصير
وشدتها ، والمؤمنون منهم يحمدون الله سبحانه وتعالى أن نجاهم من هلاك
كاد يعم المدينة كلها .

وأسفرت هذه الأعاصير عن خسائر مادية كبيرة جداً ، سقطت أشجار
كثيرة في الشوارع والحدائق العامة المشهورة ، وعُمر بعض هذه الأشجار يزيد

٢٥ — سورة الأعراف ، الآيات : ٩٧ — ٩٩ .

٢٦ — من شاء المزيد فليراجع دراسات في السيرة النبوية ، للمؤلف ، ص ٢٣ — ٤٦ .

على مائتي عام ، وتهدمت كثير من المنازل ، أما الخسائر البشرية فكانت قليلة .
والطريف فيما حدث أن مذيع النشرة الجوية في إذاعة لندن قال مساء
الخميس أي قبل الأعاصير بيضع ساعات :
« إن إمكانية تعرض البلاد لأعاصير غير واردة » ، وثارَت ثائرة المعارضة
وبدأت التحقيقات لمعرفة أسباب فشل مكتب الرصد الجوي .. وبعد التحقيق
ذكروا أسباباً واهية لاتستحق أن تنقل .

مأضعف الإنسان أمام خالقه ، فانقطاع التيار الكهربائي يعني انقطاع
التدفئة عن معظم المنازل .. فلو حدث هذا في وقت شديد البرودة ودام الإعصار
أياماً لهلك الناس من البرد ، بل لو استمر الإعصار أياماً لسقطت المنازل على
ساكنيها ، ومن ثم فهو لاء الحمقى لا يلجأون إلى ربهم ، وإنما يلجأون إلى
حكومتهم ، ويظنون أنه كان باستطاعتها معالجة الموقف وقد قصرت في ذلك .
قال تعالى : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ، إن إلى ربك
الرجعى ﴾ (٢٧) .

أي : إن الإنسان ليطغى أن رأى نفسه مستغنياً ، وقوله ﴿ ليطغى ﴾ أي
يجاوز الحد ويستكبر على ربه .

أين عقول كبار علمائهم التي يزعمون بأنها تصنع المعجزات ؟!
أين اختراعاتهم واكتشافاتهم وأجهزة إرصادهم الدقيقة العجيبة ؟!
طالما تهاوت هذه الأجهزة والعقول ، ووقفت عاجزة حائرة أمام مرض من
الأمراض العصرية الكثيرة التي ابتلاهم الله بها أو أمام الإعصار الذي اجتاحتهم ،
وإذا جاءهم الأجل المحتوم لاينفعهم شيء ، ولن يتأخر أمر الله دقيقة واحدة ،
ولكنهم لايفقهون .

ثالثاً - مترفون مهبطون شهكت نهايتهم

إن الحديث في هذه المسألة ذو شجون ومن المتعذر عليّ في هذه العجالة الاسترسال في عرض العقوبات التي أنزلها الله بالعصاة المفسدين في هذا العصر ، وبيان أنواعها وماتحويه من عبر وعظات ، وسوف اكتفي بذكر مثالين لأن الذين نالهم غضب الله في هذين المثالين تجار مرابون ظلمة ، ولهذا كان هناك تشابه بينهم وبين أهل مدين من هذه الزاوية ، وسوف أحاول الإيجاز قدر المستطاع .

المثال الأول :

إن الذين نالهم غضب الله وحلت بهم عقوبته كانوا معظم كبار التجار في بلدي — أي بلاد الشام — وهاكم قصتهم كما شاهدتها :

كان معظم كبار التجار في بلاد الشام محتكرين مرابين ، فهم يتعاونون المحاصيل الزراعية من الفلاحين يوم حصادها بأبخس الأسعار ، وهم الذين يتولون تحديد هذه الأسعار بالصورة التي يريدونها ولا يملك الفلاح من أمره شيئاً ، ثم يملأون بها مخازنهم التي بنوها لاحتكار طعام الضعفاء والمساكين .. وفي فصل الشتاء تزدحم حوانيت هؤلاء التجار بالفلاحين الذين يستدينون منهم بذار أرضهم ومؤونة عيالهم ، وتكون أسعار القمح وغيره قد أصبحت ضعف سعر الصيف ، وزيادة على ذلك يفرض التجار المحتكرون على الفلاحين الضعفاء نسبة ربوية تتراوح بين ٥٠٪ إلى ١٠٠٪ ، وبعد بضعة أشهر يحين موعد الحصاد ، فيجد الفلاح نفسه عاجزاً عن سداد الدين ، ويتفضل الدائن الجشع بتأجيل الدين عاماً آخر مقابل نسبة ربوية جديدة ، وهكذا يصبح الدين بعد عامين أكثر من ثلاثة أمثاله .

وإذا عجز الفلاح عن الدين وماأضيف إليه من أموال ربوية يجد نفسه في السجن ، ويصادر التاجر المحتكر أرضه وأنعامه وجميع أملاكه ، وكان القانون ، والذين وضعوه إلى جانب المحتكر الذي يتلاعب بأقوات الناس

وأرزاقهم ، وقد يلجأ أهل المدين وأبناؤه إلى الدائن يطلبون منه العطف والشفقة والرحمة ، ولكنهم لا يجدون عنده إلا القسوة والظلم والكبرياء ، ويتهم رب الأسرة بالتلاعب والكذب وأكل أموال الناس بالباطل ، هذا إذا تكرم وقبِل الاجتماع بهم في مكتبه أما البيت فلا يقبل أن تطأه أقدام هؤلاء الهمج الرعاع ... ولما كان النظام بقوانينه إلى جانب هذا المرابي تراه يأخذ ما يريد من الدائن ، وزيادة على ذلك يخبر أبناء مهنته بالمشكلة ، فإذا عاد الفلاح المسكين ليستدين لا يجد من المرابين من يستجيب لطلبه .

وطبقة المحتكرين المرابين دخيلة على مجتمعنا الإسلامي لأن الله جلّ وعلا حرم الربا ونفر منه . قال تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ، فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢٨) .

وقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ، وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٢٩) .

وفي ظل الاحتكام إلى شرع الله كانت كل معاملة ربا تعتبر لاغية ، ولا يحق للدائن أن يأخذ أكثر من رأس ماله ، وإذا كان المدين معسراً وجب على الدائن أن يصبر عليه ، والعلاقات بين المسلمين تقوم على المحبة والأخوة

وورث العصاة المرابون هذه المهنة الوضيعة عن اليهود ، فقبل عام ١٩٤٨ م كانت لهم محلات تجارية في كثير من البلدان العربية ، وكانت أهم أعمالهم الربا والاحتكار وتجارة الذهب ، وكان اسم يهودي في بلادنا مرتبطاً بالذهب والربا . أشار لهذه الظاهرة الكاتب الجزائري مالك بن نبي رحمه الله فقال :

« ... وأعمال يهود قسنطينة بدت في ازدهار كبير يدر عليهم الذهب في تلك الظروف المضطربة ، فكانوا يقرضون الأموال بفوائد تصل إلى ٥٠٪ أو ٦٠٪ سنوياً ، وكثيراً ما كان [سيدي المسلم] ^(٣٠) يوقع على بياض السندات والأوراق التي يقدمها تجار شارع فرنسا .

وفي الفترة بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٢٥ تمت في تلك الحوانيت تصفية ماتبقى من ثروات لدى عائلات قسنطينة العريقة في بورتوجوازيته . وفي تلك الحوانيت أيضاً كان الفلاحون يتخلون عن آخر قطعة من أراضيهم في مقاطعة [سطيف] أو [قلما] أو [عنابة] . والطريقة كانت واحدة ، إنها التوقيع على سندات بيضاء .

وهذه الاجراءات فرضت حصاراً مخيفاً حول ملكية الجزائريين أبناء البلاد . وقد أصبحت حوانيت اليهود عبارة عن واسطة لانتقال الملكية من أيدي الجزائريين إلى أيدي المعمرين ^(٣١) ، وكان ذلك سهلاً ؛ فالبورجوازي من أجل أن يقيم حفلة زواج ، والفلاح من أجل أن يشتري سيارة [سيرون] ليأتي بها ويقضي سهرة في شارع [ايشيل] في قسنطينة كان بحاجة للمال . واليهودي كان مستعداً دائماً ليقرضه بفائدة ٦٠٪ ، والفائدة المتجمعة بهذه النسبة تنقل آلياً بعد عام أو عامين ملكيتهم من أيديهم إلى أيدي المعمرين .

٣٠ - سيدي : تعني احترام المخاطب وتقديره ، ولكن الكاتب يستخدمها للسخرية من الذين كانوا يجهلون مخططات اليهود والفرنسيين .

٣١ - المعمرين : الذين دخلوا الجزائر مع المستعمر الفرنسي وهدفهم الاستيطان فيها .

[وسيدى المسلم] لا يحسب الفائدة مطلقاً ، عندما يقدم له الدائن اليهودي الشاي والنعناع أو قهوة تركية جيدة الصنع ، في الساعة التي يحين فيها توقيع السندات . ولم يكن ليدرك حقيقة ما فعل إلا حين يطرق حاجب المحكمة بابه « (٣٢) .

رحم الله مالكا ، لقد كان يتحدث عن أوضاع المسلمين في قسطنطينة ، وكأنه يتحدث عن مدن وقرى بلاد الشام التي كان لليهود — والذين رباهم اليهود — وجود فيها ، وفيما ذكره دليل على تشابه مشكلات العالم الإسلامي قديماً وحديثاً .

نعود إلى الحديث عن طبقة المرايين والمحتكرين من كبار التجار في بلاد الشام ، وكنا قد تحدثنا عن سلوكياتهم كأفراد .. أما أوضاعهم الجماعية ، فلقد كانت لهم نقابات لا يصل إلى قيادتها إلا كبار أصحاب رؤوس الأموال الذين ينحدرون من عائلات معينة ، وفي هذه النقابات يتم رسم سياسة الدولة — الخارجية والداخلية — واختيار كبار المسؤولين فيها .. وتلعب هذه النقابات دوراً مهماً في معارك انتخاب أعضاء المجالس التشريعية [البرلمانات] ، ووسائلهم في ذلك كوسائل اليهود : فهم يعلمون بأنهم لو خاضوا هذه المعارك لفشلوا لأن أوراقهم مكشوفة والناس لا يثقون بهم ، ولهذا يلجأون إلى ترشيح أسماء غير معروفة بانتمائها إلى نقاباتهم ، وتتمتع بسمعة طيبة وطنياً وإسلامياً (٣٣) .

ومن جهة ثانية يدعمون أحزاباً يمينية تؤمن بالنظام الرأسمالي الربوي ، وكان لهذه الأحزاب ثقل في تاريخ بلاد الشام الحديث ، ومن جهة ثالثة يقيمون علاقات متينة مع شيوخ القبائل والتكتلات غير الإسلامية كالنصارى وغيرهم ، ومما أعلمه أنهم كانوا يدعمون حزباً علمانياً يسارياً ، ينادي زعيمه بالاشتراكية ،

٣٢ — مذكرات شاهد القرن ، مالك بن نبي ، دار الفكر* بدمشق ، ص ١١٢ .

٣٣ — من بينهم علماء مشهورون كانت لهم مواقف مؤسفة ، وكانوا يتبنون أموراً انعقد الإجماع على حرمتها ، وحسبهم أنهم كانوا ينفذون ماتأمرهم به هذه النقابات !!

وكان يخوض معارك داخل المجلس ضد الاحتكار والربا ، وحجتهم في ذلك بأن زعيم الحزب ومن حوله انتهزيون ، ووجوده في المجلس يضمن عدم وصول الأحزاب اليسارية المتطرفة إليه ، وليس مهماً عندهم التصريحات التي يدلي بها داخل المجلس وخارجه ، فالسياسيون في بلداننا اعتادوا على مثل هذه المواقف المتناقضة ... بل وليس مهماً عندهم كون هذا الحزب من أشد الأحزاب كيداً للإسلام والمسلمين .

لقد رأيت معظم كبار هؤلاء التجار ، يقدمون مصالحهم على كل شيء ، فهم يؤيدون الحاكم العسكري المستبد ولو كان شيطاناً ، إذا لم يمس مصالحهم بسوء ... وليفعل بعد ذلك مايشاء .. لينشر الفساد .. وليتحد عقيدة الأمة .. وليزج بالعلماء والدعاة في السجون والمعتقلات المظلمة ... لن يجد بعد ذلك منهم إلا التأييد والدعم وتبرير كل مايفعله .. ويتغير الحال إذا قيد حريتهم في الاحتكار أو في الاستيراد والتصدير ، ويتذكرون بأنه عدو للإسلام ، ويسعون إلى استشارة العلماء ، ويلجأون إلى رواد المساجد يطلبون منهم إنقاذ عقيدة الأمة من المستبدين الظالمين ، ويجدون بكل أسف من يستمع إليهم ويظن بهم الخير .

وتشاهد بعضهم في المساجد فتظنه من بقايا السلف الصالح .. فتراه يطيل الركوع والسجود ، ويكثر من الاستغفار ، ويحرك رأسه يمينا ويساراً إذا سمع المواعظ والتذكير باليوم الآخر .. ومن بين مايسمعه التحذير من الاحتكار وتهديد الله ووعيده للمرابين ، فتظن بأن الرجل سوف يتوب ، لكنه إذا خرج من المسجد أصبح إنساناً آخر ليس له أي صلة بالإنسان الذي شاهدته في المسجد ، فتراه يحلف وهو الكاذب ، ويخون الأمانة ، ويغش في بيعه ، ويعرف كيف يستغل حاجة المشتري .. ثم تتبعه إلى بيته فتجده الإنسان نفسه الذي رأيته في مكتبه التجاري ، والذي يحرص عليه أشد الحرص أن يسير أبناؤه على خطاه ، ولا يخجل من تدريبهم على الغش والاحتيال والاحتكار .

ومن سنن الله في خلقه أن هؤلاء الظالمين لن يسلموا من عقوبة الله سبحانه وتعالى ، ولن ينجوا من بطشه ، ولقد شاهدت ماأنزله الله بهم كما شاهدت

ظلمهم وطفيانهم ، وإليكم وصفاً موجزاً للعقوبة التي حلت بهم :

أنشأ اليهود والصليبيون في بلادنا أحزاباً علمانية ، وجعلوا من أهم شعاراتها : الاشتراكية ، والتأميم ، والحرية ... ومن أبرز أعدائهم : الرجعية [أي الإسلام] ، والإقطاع ، والرأسمالية ، وفُتِنَ بهذه الأحزاب أبناء الفلاحين وغيرهم من الفقراء المدقعين ، الذين أشربوا كره طبقة كبار التجار ، وسمعوا من آبائهم وأمهاتهم العجائب والويلات عن ظلم هذه الطبقة وأنهم كانوا يعاملون العمال والفلاحين معاملة لا تليق بالعيد ، فكان السؤال المطروح عند هؤلاء : كيف ينتقمون من هؤلاء المستغلين الانتهازيين ، وكيف يثأرون لكرامة آبائهم ؟!

ووجدوا ضالتهم في الأحزاب الاشتراكية [الثورية] ، وسهل لهم قادتهم دخول الجيش ، وبعد زمن يسير أصبح الشباب من كبار الضباط ... وهكذا بدأت الانقلابات العسكرية ، وأمموا المصانع والشركات ، ووزعوا الإقطاع أو ما أسموه بالإقطاع ، وعيّنوا الضابط الصغير الذي لا يفهم شيئاً عن الصناعة مديراً أو رئيس مجلس إدارة مصنع من المصانع الكبيرة ... فكان هذا الضابط يحتل المصنع احتلالاً عسكرياً ، ويطير قلب صاحب المصنع هلعاً عندما يشاهد الدبابات والجند يحيطون به من كل جانب ... ويتقدم المدير الجديد ، فيفتش صاحب المصنع تفتيشاً دقيقاً ، ويأخذ منه حتى القلم الذي في جيبه لأنه من أموال الأمة ويجب أن يعود للأمة [مسكينة هذه الأمة] ، ثم يطرده من مصنعه ، فيخرج منه ذليلاً مطأطئ الرأس ، بل ويتمنى أن يكون مصيره منزله وليس السجن ... وخلال ساعات قليلة يجد التاجر الكبير نفسه في وضع لا يحسد عليه ... لقد ذهبت المصانع والشركات والحقول والمزارع والمباني والسيارات والخدم ... وماذا كانت النتيجة ؟!

إن بعضهم قد انتحر أو سقط مغشياً عليه وفارق الحياة ، وبعضهم فقد عقله وأصبح نزيل المستشفيات ، وناس منهم تمكنوا من تهريب بعض أموالهم خارج الحدود ، فلهقتهم عقوبة الله في لبنان أو في غيره ... وهكذا خسر المجرمون دنياهم وآخرتهم ، وسلط الله جلّ وعلا بعض الظالمين على بعض ...

وبدأ دور الإقطاعيين والرأسماليين الجدد ، وقد سبق لي الحديث عنهم ، فبيّنت جرائمهم وكشفت صفحات من تاريخهم الأسود الذي لايجوز أن يقارن بتاريخ معظم كبار التجار (٣٤) .

المثال الثاني :

ثم قدر الله لي أن أعمل في دويلة من الدويلات الغنية بالنفط ، والتي كانت قبل عقدين من بداية عملي فيها مستعمرة من مستعمرات الإنكليز ، وفيها رأيت طبقة أخرى من التجار ، تشبه الطبقة التي شاهدتها في بلاد الشام من وجوه ، وتختلف عنها من وجوه أخرى ... كان عامة رجال الطبقة الجديدة يعاملون خدمهم وعمالهم معاملة ليس فيها أدنى احترام ولا تقدير ، فالخادم في عرفهم يطلقون عليه لقب [الهندي] ، ولو لم يكن هندياً ، وهذا الوصف يعني أنه ليس إنساناً — عندهم — ، وليتهم يعاملونه كما يعامل الكلب في بيوتهم ، وبعضهم ورث عن الإنكليز عادة تربية الكلاب (٣٥) .

وراتب الخادم أو الخادمة لا يعادل ٥٪ من الراتب الذي يتقاضاه الموظف منهم ، وعند زواج أحدهم أصبحت الخادمة عند العروس كجزء من تأثيث البيت ولو كان الزوج فقيراً ... وهؤلاء الذين يعاملون خدمهم وعمالهم معاملة سيئة لهم في بلاد الانكليز وضع آخر ، فإذا جاء فصل الصيف غادر كثير منهم بلده إلى انكلترا ويحل في منزله الذي اشتراه ليملك فيه شهرين ثم يعيش بقية العام على هذه الذكريات ، وتجده أنه يعرف عن تلك البلاد أموراً لا يعرفها عن أي بلد عربي أو إسلامي ، وفي لندن وغيرها يتحول بخلمهم إلى كرم ، وكبرياؤهم إلى تواضع ، وغلظتهم إلى رقة ، وإقليميتهم وعنصريتهم إلى عالمية وإنسانية ، وفوضويتهم إلى نظام ... فإذا كانوا يقودون سياراتهم الفارهة وقفوا عند ما يكون ضوء الإشارة أحمر ، ولا يلقون النفايات إلا في الأماكن المحددة لها ، وإذا

٣٤ — انظر « صور من الظلم في القديم والحديث » من هذا الكتاب ، ص ١٣ .

٣٥ — يقلدون الانكليز ، وليس العرب القدامى في اقتناء الكلاب وتربيتها .

أرادوا ابتياع حاجة من المخازن والأسواق يقفون حيث ينتهي دورهم في الصف ، وإذا خاطبهم أصغر انكليزي أكثروا من استخدام : شكراً ، من فضلك ، وهل تسمح لي . ولا يحلم الخادم أو العامل عندهم أن يسمع منهم مثل هذه الكلمات .

ومع ذلك فأحوالهم مع الانكليز تشبه أحوال خدمهم معهم ، فالانكليز يتعالون عليهم ، ويمكرون بهم ، ويسلبون أموالهم بطرق ووسائل هابطة .. وهؤلاء لا يغضبون ولا يثأرون لكرامتهم التي استباحها المستعمر الذي خرج من بلدهم ، فتبعوه إلى بلده لينعموا باستعمارهم الجديد ، والله في خلقه شؤون !!

وفي نهاية الصيف يعودون إلى بلدهم ، وتعود معاملتهم لخدمهم وعمالهم وموظفيهم كما كانت ، وينظرون إلى الوافد وكأنه جاء من عالم آخر غير هذا العالم الذي يدب فوق ظهر هذه الأرض ... وذات مرة سمعت (٣٦) بأنه مما يخالف عاداتهم وتقاليدهم تبادل الزيارات مع غير أبناء بلدهم ، وسألت من أثق بهم منهم فأكدوا لي ذلك .

وقد يقول قائل : ربما كانت هذه هي أحوال العلمانيين والفاستدين المنحليين الذين لم يعرف الإيمان سبيلاً إلى قلوبهم .

فأقول : ليست بالتأكيد هذه هي أحوال الناس جميعاً ، وفي البلد دعاة طيبون ينفقون في سبيل الله تعالى ... ومع ذلك فقد رأيت نفرأ من كبار التجار المتمسكين بدينهم ، وبعضهم من العاملين في حقل الدعوة الإسلامية يعاملون عمالهم وموظفيهم معاملة سيئة ، فأجرة الشقة أصبحت عند هؤلاء أكثر من راتب الموظف الذي يعمل عندهم منذ أكثر من عشر سنين ، فكان الموظف يسأل صاحب العمل عن سبب زيادة أجرة الشقة ، وأنها أصبحت خمسة أمثال ما كانت عليه قبل ثلاث سنين ، مع أن زيادة الراتب تكاد لاتذكر ، فيجيبه صاحب

٣٦ - لم أكن موظفاً في هذا البلد ، وما كنت أشعر بما يشعر به غيري لذلك فقد كنت أستغرب بعض ما يحدث .

العمل : أما سمعت بالقانون الجديد الذي يسمح للمؤجر بزيادة الأجرة بعد مرور خمس سنين ، فيقول الموظف : القانون ظالم ، وقيمة المنزل تتناقص بعد مثل هذه المدة ، وأنا أفنيت عمري في العمل عندك ، فكيف تعاملني مثل هذه المعاملة وأنت داعية إلى الله ، فيرد عليه : إن لي شركاء ، وأنا مؤتمن على هذا العمل ، وتستطيع أن تبحث عن سكن عند غيري .. وهو واثق بأنه لن يجد أقل من أجرة شقته ... ويعود المسكين فيسأل صاحب العمل أن تكون أجرة الشقة مساوية لراتبه ، وأن يسمح له بالعمل عند غيره مساءً ... وقد يفضل صاحب العمل ويسمح له بذلك ، وقد لا يفعل فلا يبقى أمام الموظف البائس إلا الرحيل من هذا البلد الذي لم يجد فيه مايسد رمقه .

وهذا مثل واحد من المظالم الواقعة ، ولا يتسع المجال لذكر أمثلة أخرى ... لقد كان المظلومون يجأرون إلى الله سبحانه وتعالى ويسألونه الانتقام من الذين ظلموهم ... بل وقد سمعت ضعاف النفوس منهم يتمنون أن يحل بالبلد كله شر مستطير ... وكانت هذه المظالم أرضية خصبة للمخربين المفسدين من دعاة الإلحاد والشيوعية الذين كانوا يدغدغون عواطف العمال والفلاحين وغيرهم من الفقراء المعدمين ، ويزعمون بأن صراع الطبقات أمر حتمي وأنه لا بد من سحق هؤلاء الجشعين من دعاة الرأسمالية ... وكنت أتساءل وأنا أشاهد هذه المظالم :

— هل يظن هؤلاء المغفلون الجشعون أنهم ناجون من عقوبة الله سبحانه وتعالى ؟!

— ألا يتعظون من المصائب التي لحقت بمن سبقهم أو عاصرهم من كبار التجار الظالمين في بلاد الشام وغيرها ؟!

— أين التجار الدعاة ليأخذوا زمام المبادرة ، ويعيدوا الحق إلى نصابه .. أين هم ليكونوا بأخلاقهم وأفعالهم نماذج صالحة لغيرهم من التجار ؟!

وعندما تقاعس الدعاة الطيبون عن تأدية دورهم المطلوب ، وتمادى المرابون الظالمون في ظلمهم وخبثهم جاءت عقوبة الله من حيث لم يحتسبوا .

لقد جعل الله تدميرهم في تدميرهم ، فكان عبث كبار المرايين من التجار وتلاعبهم في « الأسهم » سبب الكارثة التي حلت بهم ... وخلال أيام قليلة أعلن كبار التجار — الذين كانوا رموزاً للفساد والظلم والشر — إفلاسهم ، وبعضهم صاروا نزلاء مستشفيات الأمراض النفسية ، وبعضهم الآخر نجحوا في تهريب ماتبقى من أموالهم إلى الخارج ، وهربوا مع أموالهم ليعيشوا في أوربا حياة لا يحسدون عليها ... ومعظم هؤلاء وأولئك باعوا أملاكهم بثمان بخس ، وحتى السيارات الفارهة « الرولس رويس » فقد بيعت ... أما الأبنية والعقارات فتراجعت أسعارها وعادت أقل مما كانت عليه قبل الطفرة المصطنعة ، وعاد المستأجرون الفقراء يدفعون نصف أو ربع القيمة التي كانوا يدفعونها للمؤجرين ، ولم يسلم أحد من كبار التجار وصغارهم مما حدث ولكن بنسب متفاوتة ، وكان رموز الفساد من أكبر المتضررين .

وربما كانت خسارتهم المادية — على بشاعتها — أقل ضرراً من خسارتهم المعنوية . لقد هتكت أستارهم ، وتناقل الناس أخبار أكاذيبهم وتلاعبهم ومكرهم ، وفضح الله حقيقة الذين يقفون وراءهم ويقدمون الدعم لهم . أصبح الكبير والصغير والقريب والبعيد يتحدث عن جرائمهم وغشهم وخداعهم ... وكانوا قبل ذلك أسماء مرموقة تشارك في صنع كل قرار ... وما كان لهذه العصابة المفسدة أن تنموا وترعرع في ظل الالتزام بالعقيدة والخلق الإسلامي .

الخلاصة :

قال تعالى :

﴿ أَفَأَمْنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٣٧) .
« أي لا يأمن أحدٌ أخذه تعالى العبد من حيث لا يشعر ، مع كثرة مارأى من أخذه العباد من حيث لا يحتسبون ، إلا القوم الذين خسروا عقولهم ،

وأضاعوا فطرة الله التي فطر الناس عليها ، والاستعداد القريب المستفاد من النظر في الآيات ، فصاروا خاسرين إنسانيتهم ، بل أخس من البهائم » (٣٨) .

وهؤلاء — أي الذين يأمنون مكر الله — صنفان من الناس :

الصنف الأول : هم الكافرون الذين أخبرنا جلّ وعلا عن مصارعهم في كتابه الكريم : كقوم لوط ، ونوح ، وصالح ، وشعيب .

ومن الصنف الأول الكافرون المعاصرون الذين تحدثت بشيء من الاختصار عن أحوالهم في الصفحات الماضية ، وهؤلاء لا يلجأون لله إذا نزلت بهم مصيبة ، وإنما يلجأون إلى حكوماتهم أو إلى كبار أطبائهم أولاً يعلمون أن حكوماتهم وعلماءهم لا يملكون دفع الضر عنهم ، ولا يستطيعون رد قضاء الله وقدره .

والصنف الثاني : المصرون على ذنوبهم ومعاصيهم من المسلمين ، وهؤلاء يترسلون في معاصيهم اتكالاً عليه سبحانه وتعالى ، أو ينسون ربهم ويغفلون عن بطشه . قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى :

« ولقد رأيت أقواماً من المترفين كانوا يتقلبون في الظلم والمعاصي باطنة وظاهرة ، فتعبوا من حيث لم يحتسبوا فقلعت أصولهم ، ونقض ما بنوا من قواعد أحكموها لذراريهم ، وما كان ذلك إلا أنهم أهملوا جانب الحق عز وجل ، وظنوا أن ما يفعلونه من خير يقاوم ما يجري من شر ، فمالت سفينة ظنونهم ، فدخلها من ماء الكيد ما أغرقهم . » ١ هـ (٣٩) .

قال تعالى :

﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٤٠) .

ومن أسوأ أنواع هذا الصنف المحتكرون المرابون من كبار تجار بلاد الشام

٣٨ — محاسن التأويل ، للقاسمي : المجلد السابع ، ص ٢٨٢٦ .

٣٩ — صيد الخاطر ، لابن الجوزي : فصل ٨٣ ، ص ١٠٥ .

٤٠ — سورة فصلت ، الآية : ٢٣ .

وغيرهم الذين تحدثت عنهم في هذا الفصل .

أما المسلمون القانتون العابدون فهم يخشون ربهم أشد الخشية . قال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (٤١) ، ولا يأمنون مكره جلّ وعلا إذا انتشر الفساد وعمّ الظلم ، ويعلمون أن عذاب الله قد يقع بغتة والناس نائمون ، وقد يقع ضحى والناس منهمكون في غفلتهم وأباطيلهم .

المسلمون القانتون يقرأون قوله تعالى :

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ . انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (٤٢) .

ويقرأون قوله تعالى :

﴿ أَأَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ، أَمْ أَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴾ (٤٣) .

فتنهمر الدموع من أعينهم ، وترتجف جوارحهم ، وتشتد خفقات قلوبهم خوفاً من أن يكونوا من الذين تحل بهم عقوبة الله جلّ وعلا .

المسلمون القانتون الطيبون يعلمون بأن الله سبحانه وتعالى قد أوجب عليهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا بد لهم في تأدية هذا الواجب من التعاون بينهم ، ويذكرون حديث رسول الله ﷺ :

« إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله

٤١ — سورة فاطر ، الآية : ٢٨ .

٤٢ — سورة الأنعام ، الآية : ٦٥ .

٤٣ — سورة تبارك ، الآيتان : ١٦ و ١٧ .

المسلون القانتون الطيبون يخشون من الرياح إذا هبت واشتدت ، ومن
النبوم إذا تراكمت في السماء ، ومن الأمطار عند نزولها ، وفضلاً عن هذا وذاك
فهم يرجون رحمة ربهم ويخشون عذابه . قال تعالى :

﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون
رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ (٤٥) .

٤٤ - سبق تخريج الحديث ، انظر ص ١٢٥ .

٤٥ - سورة الإسراء ، الآية : ٥٧ .

الفهرس

٥	مقدمة
٩	الفصل الأول
١١	• تمهيد
١٣	المبحث الأول : صور من الظلم في القديم والحديث
٢٦	المبحث الثاني : الأدلة من الكتاب والسنة على تحريم الظلم
٢٧	• الأدلة من الكتاب
٣١	• الأدلة من السنة
٣٣	• أنواع الظلم
٣٣	• الظلم الأكبر
٣٧	• ظلم الناس
٤١	• ظلم النفس
٤٢	• نصر المظلوم
٤٥	• نظرية شاملة
٤٧	الفصل الثاني
٤٩	المبحث الأول : كلمة موجزة عن سيرة شعيب
٥٠	• هل شعيب هو صهر موسى
٥٣	المبحث الثاني : دعوة شعيب عليه السلام

- دعاهم إلى وحدانية الله تعالى ٥٤
- جاءهم بيينة ٥٨
- كان قدوة حسنة ٦٠
- واجه قومه بانحرافاتهم ٧٢

- الفصل الثالث ٨٥
- صراع شعيب مع قومه ٨٥
- رسول أمين ٨٧
- ولا تبخسوا الناس أشياءهم ٨٨
- الصد عن سبيل الله ٩٣
- ردود مكررة ٩٧
- فصل الدين عن السياسة ١٠٢
- ولولا رهطك لرجمناك ١٠٥
- التهديد بالنفي ١٠٨
- اعملوا على مكانتكم إني عامل ١١١

- الفصل الرابع ١١٥
- مصارع الطغاة ١١٥
- ألا بعداً لمدين ١١٧
- هلاك الأمم وأسبابه ١٢٣
- مترفون معاصرون شهدت نهايتهم ١٢٩
- المثال الأول ١٢٩
- المثال الثاني ١٣٥
- الخلاصة ١٣٨

تطلب جميع منشوراتنا
في
جمهورية مصر العربية
من دار الصفوة بالقاهرة
٤٢ ش جزيرة بدران أول شبرا